جُرعَةٌ زَائِدَةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى 1441 هـ - 2019 م
ردمك 4 - 465 - 79 – 9947 - 978 (ISBN)

اسم العمل: جُرَعَةٌ زَائِدَةٌ
اسم المؤلف: سارة محمَّد معريش
تصميم الغلاف: شلالو عبد النور
المدير العام / سميرة منصوري
اخراج: فريق دار المثقف

صفحة الدار على موقع فيسبوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com
هاتف / فاكس 0666.76.28.50/ 033 85 65 70

المثقف للنشر والتوزيع

جميع حقوق النشر الورقي و الإلكتروني والمرئي والمسموع
محفوظة للناشر وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ
أو التعديل إلا بإذن من الناشر

الإهداء

إلى أحقِّ النَّاس بِحُسْن صَحَابَتي

أُمِّي وأبي حَفِظهُما الله و رَعَاهُما

إلى أختي غَالِيتي... وعَائلتي الصَّغيرة المتواضِعة

إلى قَلبِ حجيلة، وبَراءة فيفي وضَحكةِ بهية وعُيونِ رشا

إلى كلِّ مَنْ يُخْطئ في كتابة اسْمي بِحروفهِ الأربعة

إلى صَباحِ كُلِّ خَميسٍ نَشرتُ فيه إحدى مَقالاتي... وإلى القُدوةِ الذِّي سَاهم في نشرها

إلى الذِّين يَنْتابُهم شعور الفَراغِ بَعد إكْمال الرِّوايَة

إلى المِلُولِيْنَ الذِّيْنَ يُوقِفُونَ القِراءةَ في المُنْتَصفْ، ويَجهلُون النِّهاية

إلى عُشَّاق الاقتباساتِ العَتيقَة

إلى رُوحِ مُعلِّمَتي في الابْتدائِي التِّي طَرَزَت فِيَّ حُبَّ اللُّغةِ العَربِيَّة، وتوفيت قَبْل أَنْ أُهْدِيها نُسْختَها مِنْ هذه الكَلمات

وإلى كُلِّ سُكَّان القِراءة أُسلُوب حَياة

أُهْدي لَكُمْ حُروفِي المُمَزَّقة... التِّي تَنْبَثِقُ مِنَ العَدَم

سارة محمَّد معريش

جُرَعَةٌ زَائِدَةٌ

رواية

المثقف
للنشر والتوزيع

توطئة

كَتَبْتُ ''جُرْعَة زَائِدَة '' على لِسانِ رَجُلٍ، ولَكِنْ بِقلمِ أُنْثى:

مِنْ أجْل جِنَاية المِشَاعر، وتُهْمَةِ الإهمال في قانُونِ القُلوب، مِنْ أَجْلِ سُجونِ الذِّكرَيات، وكَرامَةٍ رَهن الإعتقالِ أو قيْدَ الإقامة الجَبْرِيَّة... .

مِنْ أجْلِ أصْفَادِ الوعُودِ التِّي لَمْ نَفِ بِهَا، وعُقُوبَة الضَّمِير دُونَ أَنْ نُقدِّمَ أَيَّ إِفَادَة....

مِنْ أَجْلِ كُلِّ مَنْ أَضَاعَ طَرِيقَ العودةِ، وأضَاع طَرِيقَ الوُصول؛ وبَقِيَ فِي مُنْتَصَف السُبُل لا يبُوحُ لِأَحدٍ بِضَياعِه...

كَتَبْتُهَا مُحاولةً التَّكلُمَ مِنَ الجِهَة المُقابلة، فَلطالما انْصَفت الكِتابَة الضَّحَايا ... لكنَّها بالمقابل أَخْسَرَتْ مِيْزانَ الظَّالمِين جميعًا، مُفترِضةً أَنَّهُ لربَّما كانت للظَّالِمِ قِصَّة تجعلُ الضَّحيَّة هو سَبَب الجَرِيْمَة والدَّافع إليها... أنا في هذه الكلمات لا أُعَالجُ مُشْكِلاً... أنا أنْقُل كَيْفَ يَعِيشُ مَنْ هُمْ مِثْلَ (أَيْهَمْ) وكَيْفَ يَشْعُرُونْ.

ـ سارة ـ

الصَّدْفَةُ تَسِيْرُ أحيانًا بِتَوقِيتِ القُلوبِ

واسِيني الأعْرَج

(١)

لا أَذْكُر يَومًا إِنْ سَألَنِي شَخْصٌ مُا هَلْ نَدِمْت؟ كُلُّهـمْ مُوقِنُونَ بأنَّني لا أَمْلكُ ضَمِيرًا، حتَّى أنِّ أنا نَفْسِي بِتُ مُقْتنِعًا بِذلك.

فَأنَا هُو ذَلِك الوَغْد الذِّي يَتَمنَّى النَّاسُ أَنْ أَخْرُجَ مِنْ حَياتِهم، مع أنَّني اتذمَّرُ في جَوفِي لاحقًا وتمرُّ عليَّ الأحداثُ بالعَرضِ البَطِيء فاسْتحضِرُ التَّفاصيل بِمُوسيقى هَادِئة تُعذِّبُ بَدَلَ أَنْ تُرِيْح، وتَهْدِم الكَيانَ بَدَلَ أَنْ ترُمِّمَه أو تَسْتَجْمِع حُطَامَهُ المتآكِل، فَلسْتُ صَاحِبَ الحِصَانِ الأَبْيَض ولا الفَارسَ الصِّنْديدْ ولا المنْقِذَ البَطل، والحُبُّ بعد خَمْسين سَنةٍ مِن الانكسارات المتتالية ماهو إلا «كَلِمة» كَكلِّ الكَلمات التِّي تتَجرَّدُ مِنْ مَعناها، وتتَغلغلُ بَيْن الألفاظ لِتَبقى حَبيْسةَ الوقت والمِكان، مع أنَّه «شُعورٌ» أقدَس وأعظم مِنْ أنْ يتَجسَّدَ في «كلمة»

أَجَلْ... يَحدُثُ أَنْ تَلُومَنِيْ نَفْسِي، فَفي البداية كانَ حفلُ الزِّفَافِ عَاديًا مُقَارَنَةً بامْرَأةٍ مِثْلها، امرأةٌ علَّمَتْني تَعرِيْفًا مُخْتَلِفًا للحَياة، هي رُوحٌ تَلتقِطُ السَّعادَةَ المتَنَاثِرة في الكَوْن وتُقدِّمَها لِي على طبقٍ مِنْ أمَل، هي عزائي في ظُروفٍ لا أُلُومُ أحدًا عنها، كانت تُضَمِّد جُروحِي رغم أنَّها تَحوَّلت لنُدُوب، فَات أوانُ اسْعافِها، هي لا تَعتَرِفُ بالاسْتِسلام، ولا تَكفُ عَن المحَاولة لإيْجادِ طَريقةٍ تَكْسِبُ بِها قلْبِي وتَترَبَّعَ على عرشه مُذ صَارحتُها بالمِاضِي، لِتَكُون هي الطَّرفَ الثَّالثَ بَيني وبيْن نَفسي، وَتَحُوْلَ بيْن الماضي و الحَاضر بَلْ بيْن النَّدم والأمَل.

وبَعْد هذا العُمْر رُزِقتُ بإبنةٍ صَغيرة ناعِمة بيضاء البَشرة، سمَّيتُها «راما» و«جيداء» زَوجَتي لَم تُعارِض التَّسمية مع عِلْمها المِسْبق بما يعنيه لي، كنتُ

انْتظرُ أنْ تُولدَ بفارغِ الصَّبر، حتَّى أنِّي بَلغتُ مِن السَّعادَةِ عِتِيًّا يَوْم رأيتُها أوَّل مَرَّة. كانت صَغيرةً جدًا، أَتذكَّر كَمْ كُنْتُ أَضْحَكُ وحْدِي كَمجْنُونٍ فاقدٍ عَقلَهُ كُليا... فَطالَما كانت حَيَاتي ليلاً طويلاً والآن اشْرَقَتْ فِيه شَمْسَان بَدل شَمْسٍ واحِدة، وبَاتَ الزَّمانُ يتَجرَّدُ برفقتِهما مِنْ آنِيتِه، وتَأخُذنِي الثَّواني لعالمٍ ثان. صَحيحٌ أنَّها كَثِيرةُ البُكاء، حتَّى أنَّ بُكَاءَها يَعلَقُ في الأثَاثِ و في البلاط والجدران ليرتدَّ صَدَاهُ إلى قلبي، فأشعُرَ برغبة في البكاء، لكنَّ ضحْكَتَها مع غمَّازةٍ في خدِّها الأيْسَر تُنْسِيني كُلَّ بُكَائها في وقتٍ مُتأخِّرٍ مِن اللَّيل .

وبطريقةٍ مَا، سارت الأُمُورُ بِسرعَةٍ، وأصْبَحتْ تَحبو وتَسْتَنِدُ للأشياء في وقفتها، لم تعُد الأيَّام تأخُذُ معِي نفْس المِجْرى بوجُود ابنتي، وها أنا اليوم أرَاهَا تَحْمِل مِحفظَةً أكبر مِنْ جِسْمِها الصَّغير لتَصْحَبَها أُمُّها للرَّوضَة .

وفي يومٍ مَا... كنتُ قرَّرْتُ الخُروج مع زوجَتِي «جيداء» و ابنتي الصَّغيرة «راما» للمُتَنزَّه، مَضَى وقتٌ طويلٌ منذ آخر مرَّةٍ خرجنا فيها، يَبْدو أنَّ المِلَلَ قَدْ بَلَغَ مَدَاهُ مِنْ صَغِيرتي؛ فَهِي لا تُغادِر أرْبعة حِيطانٍ إلا للرَّوضة...

لَقدْ اسْتَمْتَعَتْ كَثيرًا اليوم. وعندما حلَّتِ الظَّهِيرة ذَهبنا لمطعمٍ قُرْب المتنزَّه، فجَلسْتُ أُقابِلُ أجْمَل وَرْدتين في الكَوْن، طلبْنا أرُزًا مع دَجَاجٍ وأطبَاقًا أُخْرى... فَهَذه وَجَبَاتُ «راما» المفضَّلة.

وبما أنَّ الجوَّ كان حارًا، ما إنْ أنْهَتْ طعامها حتَّى شدَّت يَدِي بقوةٍ نحو المثلَّجات، فتَرَكْتُ «جيداء» تُكْمِلُ طَعامها على مهلٍ، واصْطَحبتُ مُدلَّلتي لاختيارِ نوعِ الآيْس كْرِيْم الذِّي ترغَبُ فيه وهي في أوج سعادتها، عندما وصَلْنا اخْتارتْ ذوق الفراولة لأنَّها تُحبُّ كلَّ مَا هو زَهْرِي.

مَدَدْتُ يَدِي نَحْو العُلْبَة وإذا بِيدٍ أَسْرعَ مِنْ يدي وكأنَّها تَسْرِقُها مِنِّي؛ كانت يدًا بيْضَاء شَاحِبة، تَعرفتُ عَلَيْها مِنْ رَجْفَة يدِها وحَرَكَة أَصَابِعِها... مازالت امرأة يَبدُو عَلَيْها الوَقار، هي مُحجَّبة، مُتوسِّطةُ القامَة، نقيةُ البشرة، جَاوزَت الأربعين لكنَّها تبدو أصْغر مِنْ عُمرها بكثير، مرَّ أكثرُ من خمس وعشرين سنةً على آخر مرَّة رأيتُها فيها، تقاسِيمُ الحياة باديةٌ حَوْلَ عينيها، تِلْكَ العينين التي لم أُفِقْ مِنْ عُمْقِهِما إلا و ابنتي تَشُدُّ كُمِّي مرَّة أُخرى: أبِي... أبي... أُرِيدُ العُلبة.

بَقَيتُ صَامتًا أتأمَّلُها، تُراها تعرَّفتْ علَيّ؟ تُراها نَسِيتْنِي؟ أنا الآن أتذَكَّرُ كُلَّ شيء وجَميع المواقِف التِّي مَرَرْتُ بها في الماضِي تمُر أمَامي كشريطٍ مُسجَّل... تَبادَلتُ النَّظراتِ معها، كأنَّ الكَونَ كُلَّه قدْ توقَّف للحْظة، فحتَّى ضَجِيجُ المَتنزَّه وضَحَكَات الأطفالِ لم تعدْ مَسموعَة، ثمَّ حَملتُ ابنتي وضَمَمْتُها، فَشَكَتْ إليَّ عَطَشَها وزَادَ إلْحَاحُها عَلى الآيْسْ كْرِيْمْ، كَمْ هي تتَذمَّرُ وتتَذمَّر دُون أَنْ تفْهَم ماذا انْتظِرُ بِضَّبْط حتَّى الآن.

بصراحةٍ أنا نفسي لمْ أكُنْ أفْهمُ ذلك ولم أَكُن أع بالتَّحديد ماذا أريد أنْ أفعل، ثُمَّ قَاطَعتُ تذمُّرَها وكَأنِّي أُوبِّخُها بغيْر وعي:

– رامَا توقَّفي... ..

لمْ أُكْمِلْ جُمْلتِي حتَّى مدَّت المرأة يَدهَا مرَّة أُخْرى نَحْوَ «راما» تتحسَّسُ خدَّها قائلةً: اسْمُكِ «راما»... . اسمٌ جَمِيل، مَنْ الذِّي سَمَّاك بِهَذا الاسم؟

– أبِي، يقُول: أنَّهَا كَانتْ أمِيرة.

– إذَنْ هي لَيْستْ صُدْفَة؟

قالَتْ ذلك وهي تنْظُر إليَّ وقدْ كَسَت مَلامِحَها بِردَاءٍ أسْوَدَ مِنَ الحُزْنِ والأ لَم

ذلك أنَّ اسم ابنتي تحول فجأة لاسم مُثِيرٍ للحزن !!!!

كَلا... هي لمْ تَكُن مُجرَّد أميرةٍ وحَسْبْ، بلْ كَانَت الوَجْه البَاسِمَ فِي أحْلَكِ الظُّرُوف هي السَّعادة... هي الفرح... «راما» كانَت الوَطَن فِي الغُربَة والحُريَّة فِي السُّجُون، كان الخَرِيفُ يُعتَبرُها نَسْمَتهُ والرَّبيعُ يَرى فِيْها أجْمَل أزْهَارِه، وما بَيْنَ الفَصْلينِ: حَرَارةُ الكبرياءِ وبُرُودة القَضَاء.

«راما» يامُدلَّلتِي الصَّغيرة، أتَمَنَّى أنْ لا تأخُذِي مِن تلك الأميرة الإسم فقط، خذي منها: حُبَّها للحياة، كُرْهَهَا للظُّلم، خُذِي مِنْها بِقَدْرِ ماتُشبِهُني مَلامحُك، خذي العِبْرَة مِنْ حِكَايَتها، فَلَنْ أروي لكِ قصَّتها قبْل النَّوم أبدًا، لكنَّكِ ستتعلَّمِينَها مِنْ نَصَائِحي التِّي أُقدِّمُها لكِ فِي الحياة، فمُعْظَم ما تعلَّمتُه أنا كانَ منها... فهذا الشَّخصُ الماثل أمامكِ الآن لم يَكُنْ ليصير إلى ما صار إليه إلا بفضل الله ثُم بفضلها هي.

أَنا لمْ أَعْتبْ عليْها يومًا... بل على العَكْسِ مِنْ ذلك، أنا مَدِيْنٌ لها لدَرجةٍ لا تتخيَّلها، لذلك وبعد كلِّ هذا الصَّمت أُجيبُكِ وبفخْر، أُجيبُكِ كشخْصٍ يَعرفُ ما يفْعل: نعم يا سيدتي...

ليس مُجرَّد تشابُه أسماء، ولم تكنْ صُدفة... ستحمِل ابتني شرف هذا الاسم وستلتفتُ كلَّما تلفَّظ به أحدَهم، ففلذَة كبدي هي من تعود عليها صِياغة المنادى في كلِّ مرَّة بعد كلِّ هذه السَّنوات .

المُزعِجُون فِي أيِّ أُسرَة عادةً ما يكُونوا إمَّا أذكِياء أو حَمْقى

جورج إليوت

(٢)

رائعةٌ هي الحياة التِّي تبدأُ مع أبوين مُحبَّين في دِفءٍ عَائلي وفي كَنفِ أُسرةٍ مُهتمَّة، والأَروع أنْ تكبر على المبادئ السَّامية وتتعلَّم السَّير وأنتَ تعلَمُ أنكَ إنْ سقَطْت فستُسرعُ أمُّكَ لِحْملكَ عَاليًا والمسْح على جِراحِك، لكنَّ ذلكَ لم يحدُث معي.

الجَميع يكبُر، لكن لا يكبر الجمِيع كمَا يريد...

تُوفيت أُمِّي وأنا لم أُكمل العام بعد، مُنذ ولادَتي كانت مَريضةً جدًّا... هذا ما يُفسِّر أنَّ كلَّ مكانٍ أَحلُّ به، تَحلُّ به اللَّعنة وسوء القَدر مُنذ نُعومة أظافري.

أملِكُ صُورة معَها – صورةٌ واحدةٌ فقط- كانت تحْملُني وهي مُسطَّحة على الفِراش، بَدت مُرهقةً متعبة -وعلى ظهر الصُّورة كتب يوم ميلادي- كنت حديث الولادة وكانت هي بملامح لا تُشبِهني... كأنِّي لسْتُ أنا، لكنَّها كانت أُمِّي.

أملكُ صُورًا أُخرى لها: في عيد ميلادها قبل زواجها ويوم زفافها مع أبي، لكِنْ تلك الصُّورة هي الوحيدة التِّي تشْهدُ على أُمُومتها في لحْظةٍ لايُكرِّرُها الزَّمن، بل هو عاجزٌ على محوها، قصَصْتُ الصُّورة ووضعتُها في قِلادَة نُحاسيَّة طَوِيلة، كنْتُ قدْ حصَلتُ عليها مِنْ عَمِّي.

أُمِّي جَميلةٌ جدًّا لكنَّنِي لا أُشْبهُها، لَطَالما تَساءلتُ كيف لهذا الجَمَال أنْ يَرَ رَجلاً مثل أبي.

هه أبي... أعتقدُ أنَّه لمْ يَحزَن لفراقها، فذاك الشَّخْص لايحزَنُ على فراق أحد!

قال لي عمِّي: أنَّه بَكى كثِيرا عِند وفاتها وقدْ دَخَل في حالة اكتئاب، وأنَّ عَزائه الوحيد كان أنا، يقولُ عمِّي: أنَّه كانَ يخلُو بنفْسه مَع سجائره في إحْدى الغُرَف

يُغلقُ على نفسه الباب و إنْ أزعَجَه أحد – للاطْمِئْنان عليه أو لتناول الطَّعام– حَمِل مِعطفهُ وخَرج، فلا يعود إلا ليلاً ورائحةُ السَّجائر تَفوح منْه.

ومِنْ طِبَاع أبي مَعي لاحقا، عَرفتُ أنَّ أمِّي شَخْصيةٌ مُحاربة، يَبدو أَنَّها احتملت الكثير، وعَانت الكثير، أمِّي مِنَ الأُمَّهات اللَّاتي لا يترُكنَ صِغارهن، هي قويَّة حتَّى في مَرَضِها، واختارت أنْ تكونَ أُمًّا لِبضعة أشهُر فقط على أَنْ تُسقِطَني جَنينًا في أوَّل فترات حَمْلها.

الله هو مَنْ يبْعثُ الحياة في الأجْساد وأُمِّي لم تبخلْ عليَّ بهذه الفُرصة، فمَنحتْني الحياة بدَلَ أنْ تُكمِلها هي، مع أنِّي لم أعِشْها كمَا يجِب، ولم أفعل ما يتوجَّب... أُمِّي اختارت أنْ تراني وتحْملَني وتشمَّني على حساب سنَوات إضافية مِنْ عُمرها... ألهذه الدَّرجة أنا أستحق؟

بَعدها وبحُكم عَمل أبي وَضَعني عند عمِّي وزوجَته فترَعْرَعْتُ عنده ومع بَناته... أمَّا زوجة عمِّي فَهي مُربِّيتي: تُطْعمُني، تُغيِّرُ مَلابسي، تُحمِّمُني، تُمشِّط شعري، تُشاهِدُ معي التِّلفاز وتَطمئِنُ عليَّ خَلفَ السَّتائر إنْ خرجت للَّعب مع أولاد الجيْران، حتَّى في اللَّيل تتفقدني... أذْكُر مرَّة أنِّي أُصِبْتُ بورمٍ جِلْدي و ظَهرت عليَّ بُثورٌ تُثِيرُ الصُّداعَ والحمَّى، فَكانت خائفةً عليَّ لدرجة أنَّها بكت فصارَ كلانا يَبكي دون توقُّف.

كَمْ هي حنونٌ مِعطاء، هي صَديقةُ أُمِّي منذ فترة المراهقة، أُناديها «ماما» كما يفعل أبناؤها... صحيحٌ أنَّني لا أذكرُ الكثير عن تلك الفترة لكنَّني أعلم أنَّها أروع الأيَّام في حياتي، لأنَّ الإنْسان لايعرفُ قيمةَ ما يملكُه بل قيمة ما يفقدُه. نعم لقدْ أحسَسْتُ معها بالأمومة، بحنان الأمِّ، وإلى اليوم يَخطرُ ببالي ذات

السُّؤال: ماذا لو أكملتُ حياتِي معهم؟ هل كنتُ سأكونُ ما أنا عليه الآن؟ كيف لتربية الآباء وحنانِ الأُمَّهات أنْ تُؤثِّر على مُستقبل الفَرد بالكامِل؟ ثُمَّ لماذا أخذنِي أبي إنْ لمْ يَكنْ بِقدْر المسؤولية؟ هلْ منحتني أُمِّي الحياة من عمرها ورحَلتْ، لكي أصير الى ما صرتُ إليه الآن؟

بعد سنوات كان لابدَّ مِنْ دُخول روضة الاطفال وتعلُّم حُروف الهِجاء وحِفظ أناشيد الأعياد الدِّينية والوطنيَّة لكنَّ الأبجديَّة التِّي كُنتُ سأتعلَّمُها دَخل فيها حرفٌ جديد يُدعى: زوجةُ أبي.

... زوجة الأبِّ، كانَ هذا يَعنِي أنْ أَكسِب شَخْصًا جَديدًا يُحبُّني ويهْتمُ لي، بل خُيِّل إليَّ أنَّها عَروسٌ جميلة في البَيت تُحبِّني وتَحْنو عليَّ... وعلى هذا الأساس تمَّ نَقلي لبيتِ أبي والرُّجوع إلى كنفِه لاحقًا... وهذا يَعني أيضا أنْ أمكُثَ معها وآكُل طَعامها الذِّي تطهو، وتقُوم بغسل ملابِسي واللَّعب معي، وأبتعدَ عَنْ زوجة عمِّي وصغيرتيها.

لقد كانَ بيت أبي خالٍ من الأطفال، كمَا أنَّه أضْيقُ بكثير من بيت عمِّي إضافة لكونه لايحتوي على حديقة ولا يُسمحُ لي بالخُروجِ للَّعب مع أقراني إلا نادرًا... وبعد أنْ انفصلتُ عنْ أُمٍّ ولدتْني من قبل، الآن انفصِلُ عَنْ أُمٍّ ربَّتنِي والحلُّ الوَحيدُ كَي أعُودَ إليها هو: أَنْ أُشاغِبَ و أُثيرَ المتاعبْ، حتَّى تَملَّ الحَالة «لجين» منِّي، وتُعيدَني مِنْ حيث أتيْت، فكنت أُلطِّخُ لها المكان فورَ تنظيفِه وأعبثُ بأغراضها وعُلب مكياجها فتلك الألوان كانت تَستهوِيني هههههه، لا أحلُّ واجِباتي، لا آكل طعامي، حتَّى أنِّي كنتُ أسكُبه على الأرضِ أحيانًا... لم تكنْ لتبخل عليَّ بصفعَاتِها الحارَّة، لكن بدوري كنت أبكي وازداد عصَبيةً

وشغبًا، لكنَّها سُرعان ما تُراضيني قبْل أنْ يعودَ أبي مساء؛ فأخْشى أنْ تُخبِره بأفعالي بقدر ما تَخْشى هي أنْ أخبِره أنَّها قامت بضربي فكان كلانا يصمت . ما كان أبي ليفهَم صمتي، ما كان ليفهَم كلماتي حتَّى لو بُحتُ له بكلِّ الضَّياع الذِّي أنا فيه، سمعتُه مرَّة يقولُ لها: هو صغيرٌ وغير مُتعوِّد على المكان سايريه وهذا ما زادني إصرارًا على العودة الى زوجة عمِّي، فكان يزداد تمرُّدي مع الأيَّام... لو أنَّ أُمِّي على قيدِ الحياة لِما كانَ عليه أَنْ يَقرِّر مكان وجودي بهذه الطَّريقة.

ودَخلتُ المدرسة الابتدائية دون أنْ يتغيَّر مِنْ وضعي شيء... كنت دائما أرجعُ وحدي مساء بينما تنتظِرُ الأمهات أبنائهن أمام المدرسة، لكنْ في ذلك المِساء كان أبي في انتظاري على غير العادة، أمْسكَ بيدي: «أيْهَم» صَغيري كيف كان يَومُك ؟

- جَمِيل

- ما رأيكَ بكوبٍ مِنَ الحليب بالشُّوكولاتة السَّاخِنة ؟

- ومع قَطعة حَلوى

- نعم... والتِّي تُرِيد

فأخَذني لمكانٍ جميلٍ، وطعمُ الشوكولاتة كان أجْمل... فضلا عن كلِّ هذا وذاك، كنتُ وحدي مع أبي، فهذه أوَّل مرَّة نخرُج فيها دون الخالة» لجين»

- أكْمِل حَلْواك بِسرعة أُمُّك في الانْتظار

- ليست أمِّي !

- حتَّى لو أنْجبَت لكَ أخًا صغيرًا!

– ليس لي أخٌ... وليْست أُمِّي، ثُمَّ توقَّفتُ عن الأكل وطويتُ يديَّ على الطَّاولة بغضب أطفال، وكأنَّني عندما أتوقف عن تناوله سيكون ذلك مَصدَر تهديدٍ له

– «أيْهَم» بُنيَّ... أحضرتُك إلى هنا لنتكلَّم بهدوء، «ماما لجين» في أَوَّل فتراتِ حَمْلها عليك أنْ تُقدِّر أنَّه: قدْ تزيدُ عَصبيَّتُها ومرضُها، ساعِدْها وكُنْ مُطيعًا لها، لا ترهقها أكثر، أنتَ البطل الذِّي سأعتمِدُ عليه في ذلك.

لا أتذكَّر جوابي له حينها، لكنَّني أذكُر تَجَبُّرها الذِّي لمْ يَعُد يُحتَمل بالفعل، فبعد أَنْ كانت تضرِبُني بِسبَب صَارت تضربُني دون سبب أيضًا وعندما يَعود أبي مساء أُخبِرُه بكُلِّ شَيءٍ حتَّى أفعَالي... فكانَ يُنصِتُ بصمْتٍ وينهضُ مِنْ أمامي كأنَّني كُنت أُكلِّمُ جدارًا أو صنمًا.

إلى أنْ أتَى ذلك اليوم الذِّي صَفعتْني فيه أمامه دون أنْ يَنبْس أو يُبدي أيَّ ردَّة فعل صغيرة، ركضتُ إلى سَريري بكيتُ طويلاً ونمتُ أتخيَّل أُمِّي وأتذكَّر زوجة عمِّي وأيَّام العُطل التِّي نقضِيْها معًا والدَّمع على وسادتي... نعم يا أُمِّي، صَغيرك يَغفو على وسادة مبلَّلة بالدُّمُوع.

يالُمِيْمَة، يامَنْ أنا قطعةٌ مِنْك... أنت لست مُجرد شَخصٍ ناقصٍ طِوالَ الوقت، لست مُجرَّد شُعورٍ بالفراغِ والضَّياع حتَّى وأنا بين دفاتري وألعابي... بل أنت مَنْ تغَيَّر قَدري برحيلك، أنتِ الدُّعاء الخالصُ الذِّي يَقيْني مِنَ السُّقُوط في كلِّ مرَّة اتعثر فيها، أنتِ ضَمَّة تسكُن فيها رُوحي المبعثرة، حتَّى إذا أغْمضْتُ عيني غَدى كُلُّ شيءٍ على خيْرِ ما يُرام والأمُور تسيرُ على أحْسنِ حال، تنقصُني صفعةٌ منكِ تُعيدني إلى مبادئِي التِّي لمْ أنْشأ عليها، فأنتِ وَحدك الأعرف بِي وبِمصلحَتي.

لَكَمْ هي ضحكةُ الأعيادِ حزينةٌ من دونك، كَمْ هي الصُّور المأخُوذة في المناسبات حزينةٌ وتَشتهي تواجُدَك فيها... كَمْ هي الحياة قاسيةٌ على رجلٍ صَغيرٍ مِثلي، فهل تعلمين؟

في كُلِّ مرَّة أزُورك فيها تفقدُ الألوانُ بهجتها... أشعُر أنَّ تبْضِي يُغطِّيه التُّراب وأنفاسِي تَضِيق، وأحقِدُ أكثر على الخالة «لجين» ولا أقوى على مُواصَلة الحياة معها وتُقاطِعُ نَفسِي الأكْلَ والنَّوم لأيَّام.

أمَّاه... مَنْ ذا بَعدكِ يَحمِينِي؟

وبَيْنَ ضُلوعِهِ يُخبِّيني...

حتَّى لا يَنالَ الزَّمَانُ مِنِّي...

أُمَّاه... هلاَّ طلبْتي لِقائي...

مِنَ المؤْلى، إنْ صَلَّيْت...

لتَعلُو رُوحِي كمَا علَوتِ...

أُمَّاه... أنا وَليدٌ راغبٌ فيكِ...

راغبٌ في رضاكِ وتقبيلِ كفَّيكِ...

أنْ أُهدِي رُوحي للموت، حتَّى ألتقيكِ...

فِي الجنَّة تحتَ قدميكِ...

أستَودِعُك الله... يا مَن انا كله انت

انتظرتُ أبي ليأتِي لمواسَاتي لكنَّه لمْ يَفْعل، وفِي الغدِ استيقظتُ... لمْ أجِدْه، ذَهبتُ للمَدرسة ثمَّ عُدْت فكان كُلُّ شَيءٍ قد نُسِي، وكأنَّه لمْ يَحدث... لمْ يَحدث أيَّ شيء.

سَيئٌ جداً أنْ تَحْمِلَ هُمُومًا ليْسَتْ مُناسِبَةً لِسنِّكَ فِي وَقتٍ

مِنَ المُفتَرَضِ أنْ تَعِيْشَ أجْمَلَ أيَّامِ حَيَاتِكَ

نَجِيبْ مَحْفوظْ

(٣)

أصْبحتِ الخَالة «لجين» تتفاخَرُ بِبطْنها المنتَفِخ أمام صَدِيقاتِها اللاَّتي كُنَّ يَأتِينَ لزيارتها في المنزل، وتسْتمْتِع بالسُّؤال عن جنسِ جنينها وكيف ستُسمِّيه، فتَجلِب منَ الخِزانة أغراضَ أطفالٍ بِعُمر السَّنة وقدْ اشترتْها تجهيزًا لقدُوم المولود الجديد، وكنَّ يُبدِينَ إعجابَهُن بلون الثِّيابِ وحجمها الصَّغير... ويَتسابقن في السُّؤال عن مكانِ شِرائها وثَمنها.

هُو ولدٌ... . سمَّاه أبي: «أيمن»، أراه ابنها أكثر ممَّا أشعُر أنَّه أخي، فكِلاهُما كانا كثيرًا الانشغال به – صباحَ مَساء– دُون مَللٍ أو تعب. كانَ هو صغيرًا جدًّا كثيرَ البكاء ليلاً، كثيرَ النَّوم نهارًا، حتَّى إذا فتح عينيه للحظة نشرَ البهجة في المكان، لطالما انتظرتُه لينمو ويلعبَ معي و ندرس معًا واتفاخر به في المدرسة لكنَّه بالمقابل كان يَسرِقُ منِّي الاهتمام دون أنْ يكبُر ويَستَحوذ على أبي، ويصُبَّ غضَبَ الخالة عليَّ؛ فالخالة «لجين» لم تعدْ تحرصُ على: مَوعدِ أكلِي ونَومِي وتُعاملُني كأنِّي لستُ موجودًا في البيتِ أصلاً، وتطوَّر بها الأمرُ لدرجةٍ لم تعدْ فيها تهتمُ لمظهري أمام الجيران وفي المدرسة، حتَّى إنْ تمزَقتْ ثيابِي فَهي لا تُخيطها ولا تُرتِّب خِزانتي كسَابق عَهْدها، أصبَحتُ أبدو كالمتشرِّد فكلُّ شُغلِها كان «أيمن»... لاحظ أبي ذلك فكانت تحدثُ شجاراتٌ بينهما بسببي، وعذرها دومًا مرض «أيمن» وسَهرُها عليه، بل إنَّها تتهمُني كذبًا انِّي أمنعُها كُلَّما أرادَت الاهتمام بي.

وضْعِي لمْ يتغيَّر مِنْ ذلك كله حتَّى أنِّي صِرْتُ أذهبُ للمدرسةِ دون لُمجة، وفي مرَّة من المرَّات كِدْتُ أفقدُ الوَعي من شدَّة الجوع، يومَها انْتبهتْ لي فتاةٌ تدرسُ

معي في الصَّف، رغم شعري الأشعث وملابسي الرثَّة الضَّيقة ورغم تجنب جميع زملائي اللعب معي .

كان اسمها «رودينة» والجميع يدعوها «رودي»، للوهلة الأولى تبدُو مُتكبِّرة ومغرورة، ومقارنة بي يَظهرُ أنَّها مِنْ طبقة النُّبلاء وأنا مِنْ الرَّعايا أوالعَبيد، هي ابنةُ أستاذة مُتقاعدة، أمَّا والدُها فهو رجلٌ أعمى، فقدَ بصره في حادث سير، عرفتُ منها فيما بعد أنَّها قريبتي، ذلك أنَّ أباها الكفيف هو أخٌ لزوجة عمِّي -التِّي ربَّتني- من جهة الأُمِّ فقط، لأنَّ ألقابَهُما مختلفة، فبطريقة ما هي ابنة خالي من أُمٍّ تمنَّيتُ أنْ أبقى معها.

«رودي» مُرتَّبة الهندام منسدلة الشعر، ترتدي مأزرًا أبيضًا، وتنورة قصيرة، لتبدو كراقصة باليه.

يومَها انفلتَت من بين صديقاتها وأتت نحوي وفي يدِها عُلبة طَعامها:

- أنا لا أُحبُّ البيض المِسلوق... تفضَّل

بدَا المِشهد كأنَّها تُطعم حيوانا أليفا أومتسولا على قارعة الطَّريق، أمسكتُه كالبائس مِنْ شدَّة جوعي ثُمَّ فجأة اكتسحتْني موجة من الكرامة فعَدَلتُ عن رأيي - ردَّ فعلي كان تلقائيًّا وسريعًا- لأنِّي عندما سألتُ نفسي: مالذي يجعلها تفعل هذا؟ عرفتُ أنَّ الجواب هو: الشَّفقة، فأخبرتُها أنِّي لستُ جائعًا، فلمْ تأبَه لردِّي وَمَضَت إلى صديقاتها.

كان هذا أوَّل حوارٍ دار بيننا، وللأقدار مواعيد أخرى...

في مرَّة من المرَّات بعثتْ بي الخالة «لجين» لدكان قريبٍ لشراء الحاجيات ل»أيمن» -هي لا تُعطِيني نقودا إلا لأشتري لها، وتَسترجع منِّي ما بقي معي عند

عودتي- لكم تمنيتُ أنْ تكون لديَّ حصَّالة نُقودٍ ومصروفٌ شَخصيّ- فجأة صادفتُ «رودي» في الشَّارع مع والديها لم يكن العم «جهاد» طاعنًا في السِّن لكنَّه كان كفِيفًا، كان يُمسكُ يدها الصَّغيرة ويتبادلان الحديث، كأنَّهُما وَحدهما في هذا الكون، سَمعتُها تُكلِّمه عن فحصِها كيف قدَّمته... لقد كان والدها مهتما لذلك رغم كونه أعمَى، على عكس أبي الذي يرى الألوان لكنَّه لا يُبصرُ واقع ابنه الأكبر، فقد مضَى وقتٌ طويل على آخر مرَّة تفقَّد فيها دفاتري.

عرَّفتني على والدها الذِّي فرح كثيرًا بلقائنا، و بالمقابل كانت أُمُّها عدائيَّة معي دون سبب.

أذكُر يوم سقطتْ منِّي القلادة التِّي تحمِلُ صُورتي مع أمي، حَملتها لي» رودي» مع أُمِّها التِّي وبَّختني... لمْ أفهم حقدَها عليَّ يومها بلْ إنِّي لم أفهم حِقدها إلى الآن، لكنَّها أحيانًا تعطفُ عليَّ لدرجةِ أنَّها مَسحتْ على شَعْري وقالت:

- يَجبُ أن تكونَ رجلاً صالحًا، عليك أنْ تُثابر في دُروسك...

قالتْ ذلك بِنبرة يَعجزُ عقلي الصَّغير يومها على فهمها، لمحتُ فيها حنان أمٍّ للحظة وقساوة الخالة «لجين» في نفس اللَّحظة، حتى اعتقدتُ أنَّها مُنفصمةُ الشَّخصيَّة: تتأرجحُ بين ودٍّ وكُره، بين حنانٍ وغضبْ، هي تُبعدني عنْ «رودي» فلطالما أزعجها أنْ نقضي أوقات الرَاحة معًا، أعلمُ أنَّها تدَّعي اللَّطافة والوِد لتكسب ابنتها من جهة وتُبعدها عنِّي من جهة أُخرى، ربما خشت أنْ تتعلَّم ابنتها التَّصرُّفات السَّيئة منِّي، مع أنِّي كنت أحسبُ ألفَ حسابٍ لتصرفاتي وكلماتي مع «رودينة» .

مرَّت سنواتٌ وأصبح أخي يمشي ويتلفَّظ بكلماتٍ تافهةٍ تُثيرُ إعجابَ أمِّه وأبي، فأتساءَل كيف لكلماتٍ شبه مفهومةٍ وجُملٍ ركيكة التَّرتيب أنْ تُحدث هذا الكمَّ

الهائل منَ السَّعادة في قلبيهما، وإذا بكى فَسيُهدئانه بشيء ما، أمَّا بُكائي فهو مزعجٌ مثيرٌ للصُّداع حتَّى يَنتهي بي الأمر في غرفتي أبكي وحيدًا

صَحيحٌ أنَه كانَ أصْغر منِّي لكنَّ حصته كانت أكبر منِّي في كلِّ شيء، يحصُل على الحلوى من أبي، أما الخالة «لجين» كُلَّما تسوَّقت تَشتري له ثيابًا جميلة وعندما أسألها ماذا عنِّي تُجيب: إبحث في خزانتك ستَجدُ شيئا تلبسه، هي تقول: أنَّ «أيمن» يكبُر بسرعة وهو في حاجة إليها أكثر منِّي... وكأنَّ مرُور السَّنوات كانَ مُقتصرًا على ابنها فقط.

رُبما ما كان عليَّ أنْ أطلب شيئًا منها لأنَّها لم تكنْ يوما لي أُمًّا، لكنَّ العتب كلُّ العتب على أبي، يسألُ عنْ «أيمن» أكثر ممَّا يفعلُ معي، كمَا أنه لم يعدْ يُقلِّبُ دفاتري أو يحرصَ على دروسي، بل إنَّه لم يعدْ يُوبخني إن رسبْت، يبدو أنَّه سئِم منْ ذكائي الذِّي لم يستيقظ، وملَّ منِّي ومنْ تعليمي، وفضَّل أنْ يَحملَ ويُدلِّل صَغيره وينفجرَ ضاحكًا لكلِّ حركة تافهة يقوم بها، أمَّا أنا فحتَّى إنْ صِرتُ لاعب بهلوان يتوازن على حبلٍ منْ ارتفاع شاهقٍ فلنْ يُحرك ذلك له ساكنًا.

بصراحةٍ لمْ أَعدْ أُحبُّ «أيمن»، بل لم أعُدْ أقوى على حبَّه، ليته لمْ يكبُر... ليته لم يأتي أبدا... يقول الجميع أنَّني أغَار منه، أنا لا أغار... أنا أرغبُ في أن أكونَ مثله وأعامل بنفس الطريقة وأحصُل على ما يَحصلُ عليه، ربَّما لم تعدْ مُشكلتي في الأشياء التِّي يملكُها، ربَّما مُشكلتي أنِّي لا أملكُ أُمًّا كما يملك .

ل «رودي» نظرةٌ أخرى للحياة، هي تفاجئني بأفكارها المتفائلة، قالت: إنَّه لو كان لها أخًا صغيرًا فستهتم به كما تفعل أمُّها وستصِفُ كُلَّ شيء لأبيها حتَّى أدقَّ التَّفاصيل وستكون سعيدةً بذلك. صدِّقيني يا «رودي» حاولتُ أنْ أكُون

لطيفًا معه وأنْ أفعلَ كُلَّ ماتقولين، لكنْ عبثًا أحاول، خصوصًا أنَّ أُمَّه تُبعدني عنه، هي تخشى أنْ أقُوم بضربِه فِي غيابها، مع أنِي لمْ أفْعل ذلكَ أبدًا.

لم تتحمَّل الخالة «لجين» ماتسمِّيه هي الغيرة وأُسمِّيه أنا قلَة اهتمام، فقامت بإقناع أبي- بأنَّها لايُمكن أنْ تتحمَّل الوضع أكثر من ذلك، خاصة وأنَّها كانت تُفكِّر في إنجاب مولُودها الثاني- أنْ أُكملَ دراستِي في مدرسةٍ داخليَّة، على الأقل هناك سيتحسن سلوكي و مستواي الدراسي.

وأبي هو الآخر رحَّب بالفكرة، وكأنَّه كان ينتظرُ أنْ يقترحَها أحدٌ ما عليه، ذلك أنَّه من الصَّعب أنْ يُرسلنِي بقناعتهِ الشَّخصية وحدها، لقدْ كنتُ مُترددًا جدًّا ومنزعجًا منْ قرارهما، فبدا عليَّ الاستياءُ والرَّفض، فغيرت الخالة لجين سياستها وصارت تعاملني بحنان ملفَّق وتدَّعي الاهتمام، وتُقنِعني أنَّها الأعرف بمصلحَتي، قالت: أنَّ حُلمِي في أن أكُون قبطان سيتحقَّق وستفخر بي؛ لأنَّها لطالما اعتبرتْني مولودها البِكر، رغم شُغلها الشَّاغل ب»أيمن»

... هههههه لقد قرأتُ الكذبَ في عينها، في نبرة صوتها رغم سنِّي الصَّغير، لكنَّها امرأة لاتيأس، ولا تفوّتُ فُرصةُ لإقناعي، حتَّى أنَّها ذات مرَّة -عندما كُنتُ ألعبُ في العليَّة-أحضرَتْ لِي كوبًا من الحليب والكعك ووضعتهما أمامي، ثم بدأت تمسحُ على شعري وتبتسم بمكرٍ، من ثم اخبرتني أنَّه إنْ لم تروقني المدرسة الجديدة فيُمكنُني العودة -إنْ أردْت- وإنْ استَمرَّيتُ فيها فستُرسل «أيمن» إليها حين يكبُر كي نكون سَويَّة دائمًا. لقد قبلت اقتراحها، ليس لانخداعي بلُطفها المصطنع أو لأنِّي صدَّقت أنَّه يُمكنُني العودة، بل لأنِّي على يقين أنَّ رفضي سيجعلُ حياتي بائسةً أكثر ممَّا هي عليه الآن.

ما إنْ نُصبِحَ في عُمْرٍ مُعيَّن، عَلْينَا أنْ نَسْتَلمَ دَفَّة القِيادَة فِي حَياتنَا

المَسْؤوليَّة تكمُن فِي دَاخْلَنا

رولينج

(٤)

المدرسة الدَّاخليَّة تعنِي أنِّي سأتخلَّص من إزعاج «أيمن» وأنْ أكونَ بعيدًا عنِ الخالة «لجين» وطلباتها التِّي لاتنته، أمَّا أبي فأنا أعلم أنَّه سيزُورني... أساسًا ليست لي علاقةٌ طيِّبةٌ مع أحدٍ سوى «رودي»، لا أدْري إنْ كنتُ سأقابلُها مجدَّدًا، لذلك قصصْت صُورتها من الصُّورة الجماعية للصَّف آخر السَّنة وألصقتُها في الوجه الثَّاني لقلادة أمِّي النُّحاسيَّة لتَشهدَ القلادة – مرَّة أخرى – على حُبٍّ بريء مدفون، ثُمَّ وضعتُها –أخيرا– بين الأغراضِ الجدِيدة التِّي اشتراها لي أبي، ليصعُب على أحدٍ غيري إيجادها.

لم أُخبرْ «رودي» بانتقالي وقرار أبي المفاجئ، فأنا لا أُحبُّ الوداع، اتصوَّر أنَّ أُمَّها ستكونُ ممُونةً هي الأخرى للمدرسة الدَّاخلية التِّي ستُبعدُني عن ابنتها .

هناك في مدينة غيرَ تلك التِّي نشأتُ فيها، وفي مدرسةٍ أخرى غير تلك التِّي التقي فيها «رودي» سأزاولُ دراستي، دون حماسٍ ودون أيِّ هدف... من المحبط أن يكون لكلِّ أقراني رغبةٌ في المستقبل، إلا أنا لم تكن لي رغبة في شيء، حتى حلُم القبطان لم يَعد يستهوي خيالي .

نظامُ المدرسة الدَّاخلية صعبٌ جدًّا، ناهيك عن التَّعليم عندهم:

ننهضُ صباحًا في ساعة مُبكرة، لنُجهز انفسنا بأنفسنا، نلبسُ اللِّباس الموحَّد: البُنِّي والأبيض قبل أنْ نصطفَّ للخُروج من المرقد، نسيرُ بصفوف منظَّمة، وقد كان العم «فاروق» يوبِّخُ توبيخا شديدًا كلَّ من يأكل بصوتٍ أويثير الفوضى أو حتَّى منْ يُوسِّخُ ثيابه، حتَّى من يتأخر في اكمال طعامه أويمتنع عنه، سيلقى ما يلقى منْ نظرات العم «فاروق» وعقد حاجبيه، بل إنَّه لن يتوان عن رفع

يده إنْ لزم الأمر.

أما عند دُخولي للمدرسة فقد كان عسيرًا عليَّ أنْ أفهم دروسي وحدي دون دعمٍ من أحد أو دون مراجع مساعدة في اللُّغات الجديدة التي نتلقاها هنا .

ومع كلِّ غروب يتخلَّلُني شعورُ غريب بالحنين إلى البيت، رغم ما كنتُ ألاقيه من كيد الخالة «لجين» وابنها المدلَّل- ولكنْ للجحيم درجات، فالجحيم في وجودِ أبي خيرٌ من الجحيم في غيابه- أمَّا بعد العشاء فتتمُّ حراستُنا للمُراجعة على انفراد .

لم يكنْ لديَّ وقتٌ للرِّياضة أو أنْ ارتاد مدرسة الفنون أو ممارسة هواية أخرى، صحيح أنها في الجوهر مدرسة، لكنها لم تكنْ أبدًا كغيرها من المدارس، لقد كانت تمحي شخصيَّة المرء أكثر ممَّا ترسمها .

حتَّى الأطفال هنا لم أكن على وفاقٍ تامٍ معهم، كانوا يتشاجرون ويُثيرون المشاكل، ويتبادلون الشتائم في غياب الحارس، أمَّا في حضرة العم «فاروق» فتغدو الأمور على أحسن حال وكأنَّ شيئا لم يحدث.

وأتى الدور عليَّ، كنت اعدل سريري قبل النوم، ليأتي طفل طويل ضخْم الجثة، يبدو أكبر منِّي، بشعره المنكُوش وبطنه المنفوخ... بالكاد يستطيع السَّير من فرط سمنته- لقد كان برفقة ولدين، كنت أعرفُ أنَّه مصدرُ المشاكل هنا، فلطالما شاجر الجميع- قال بصوت فيه غُرور وثقة بالنفس:

- تبدُو فتى مدللا هات المال...

-لسْت مدللا...لا أملك مالاً من أجلك.

-هاتِ ما عندك... واتق شرِّي

-ابتعد... فأنا لا أرغب بالشِّجار وافتعال المشاكل...

فجأة هجم عليَّ ولوى ذراعي، فبدأت بالصُّراخ، لطمني الأخر على وجهي وبطني فزاد صوت صُراخي، حتَّى أتى العمُّ فاروق وبيده عصى كبيرة، أوسعه ضربًا أمَّا أنا فقدْ استدعى والدي... و لا أدري لماذا ؟

وبقيتُ أُعاني التنمُّر، فكان ذلك ينعكس سلبا على دراستي وسلوكي، وعلى كل شيء له علاقة بنفسيتي... هل تعلم معنى أن يُعاني الإنسان في صغره من التَّعب؟ هل تعرف شعور طفل لا يشعُر بالأمان مع أشخاصٍ يصطفُّ معهم ويأكل معهم ويدرس معهم طول اليوم ؟

لمْ يكن العم «فاروق» يحميني، بل كان همُّه أنْ لا تثار الفوضى فقط، بغض النَّظر عن الطَّرف الظَّالم أوالمظلوم، وأبي لا يأتِ لاستدعاءٍ ولا حتَّى زيارة، لقد أصبحتُ رجلاً فجأة، رغم أنَّ الأطفال في عمري ينامون مع لعبة وعلى قصص للأأطفال. صرتُ أعتمد على نفسي في حماية نفسي من التنمُّر من جهة والعصا من جهة أخرى.

هذه المدرسة علَّمتني أنَّ الانهيار ليس كلَّ شيء... فهناك مراحلٌ أخرى بعد التَّحطم، فالأصعبُ من المعاناة استمرارها، والأصعبُ من الجرح أن يتحوَّل لندبةٍ لا تزول، والأصعبُ من التمزُّق هو استحالة التَّضميد.

التنمُّر لايعني الاساءة الجسديَّة والإكراه المؤذي، أو التَّهديد أوالشَّتم، التنمُّر الحقيقي هو أنْ تُنجب فردًا لست قادرًا على تربيته، وحمايته في بيئته، أنْ تأتي به لهذه الحياة وتتركه يواجهها بمفرده أعزلا، وأنت تعلم أنَّك سندُه الوحيد وسلاحه المعتمد... التنمُّر هو أنْ لاتوفر الحماية لشخصٍ تحبُّه مع أنَّك قادر على ذلك،

أنْ تتخلَّى عنه في لحظة يتوجب عليك العطاء فيها دون مقابل وبلا حدود.

وفجأة يأتي صوتٌ من بعيد:

– أيهم... أيهم...

–نعم أنا هنا... حاضر

لديك زيارة من عمِّك يا ولدي، هو ينتظرك في القاعة السُّفلية... أسرع بالنزول.

مضى وقتٌ طويلٌ لم أره، منذ آخر عيدٍ... كلا لقد رأيتُه في العطلة لكنَّني لم أُحِّدثه طويلاً، مجيئهُ يبعثُ السُّرور بداخلي، قال أنه: سيرافقُني إلى المنزل هذه المرَّة، وأنَّه قدْ حصل على إذن من الإدارة بذلك. سألته: لماذا لم يحضر أبي؟ فأجاب: إنَّه مُشغول بأختي الصَّغيرة حديثة الولادة، واسمها «فرح»، قال: إنَّها تُشبه «أيمن» كثيرًا... فاستنتجتُ أنَّها نسخةٌ مصغَّرة من الخالة «لجين»، وأدركتُ أنَّه لم يعدْ لي مكان بينهم، كُنا في «أيمن» واحد، صرْنا بأثنين، ولم يلبث عمِّي أنْ أوصلني حتَّى رحل.

أخيرًا بعد أشهر من الغياب... عدت الى المنزل: إلى غرفتي، عُدت لألعابي التِّي تُذكرني أنِّي مازلت طفلاً رغم بؤسي، ثم تفاجأت أنَّ «أيمن» أصبح يُشاركني الغرفة، درجةُ اشتياقي له جعلتني أفرح أنَّه سينام بقربي، شعرتُ بالأخوَّة نحوه، رغم أنَّ الخالة «لجين» لم تكلِّمني منذ وصولي وتبدو غاضبة منِّي دون سبب، حتَّى أنَّها منعتني من الاقتراب من «فرح» أو حتى إلقاء نظرةٍ عليها، ولما عاد أبي مساءً أبدى سرورًا بالغًا لم أتوقعه، وسألني عن دراستي ورحلتي مع عمِّي، وتجاهلَ كلانا أمر الاستدعاء وكأنَّه لم يكنْ .

أجمل مافي عودتي اليوم حملُ «فرح» ووضعها في أحضاني، لقد كانت صغيرة

جدًّا، وناعمة لدرجة أنِّي أخشى عليها من ملامستي، كانت تبتسم وهي نائمة، على عكس «أيمن» الذِّي كان يبكي في صغره كثيرًا –كم هو شعورٌ غريب، ذلك الذِّي تشعر به عند امساك يد طفل رضيع وتعبث بأصابعه، وكأنَّك تُحاول غسل مافي داخلك – وعندما تتأمَّل صغر حجم يدها تجدُ نفسك تبتسم تلقائيا متناسيًا حِمْل الدُّنيا ومرارة المواصلة، وتبعثُ فيك الأمل بسؤال قدْ يبدو بديهيًا: متى ستكبُرين؟

لم أقتربْ من الخالة «لجين» ولم أُبدِ لها أيَّ تصرُّف يُغضبها، ألم أقل: إنِّي أصبحتُ شخصًا كبيرًا؟

وحتَّى «أيمن»، اشتياقي له طغى على كلِّ المشاعر التِّي أُكنُّها له، فأنا لا أعودُ للمنزل إلا يومين كلَّ ثلاثة أشهر على أكثر تقدير، وفي العطل والأعياد فقط، فأصبحت أحميه حتَّى لا يتنمَّر أحدهم عليه في غيابي عندما أكون في المنفى ... أعني المدرسة الدَّاخلية اللَّعينة

لقدْ باتت تراودني كوابيس كلَّما أردت أن أنام، وأهرب من الواقع، فأستيقظُ دائما بجسم مرتجفٍ أخذ منه الخوف كلَّ مأخذ... بحاجة أنا لكلمة: أنت معي يا صغيري لا تقلق» أو ربما بحاجة لمن يجلبُ لي رشفة ماء تهدئني وتعيد لأهدابي النُّعاس، وبالمقابل لم أطلب من أحد أنْ يفعل معي هذا، فالجميع جُبِلَ عن القسوة هنا، والعنف فيهم سمةٌ فطريةٌ... أحيانا أبكي لارتاح، فلا تزيد روحي إلا تحجرًا فأُخفي ضعفي وانقباضي كي لا أغدو مهزلةً أمامهم، أعرف أطفالاً يبكون لأنَّهم اشتاقوا لأمهاتهم ودفئ منازلهم، والبعض الآخر يبكي لأنَّ الطَّعام هنا لايرُوقه ويرغبُ بحساءٍ كالذِّي تعده أمُّه أوالتَّحلية... وجميعهم بكى رغم

ضحكات البقيَّة عليهم.

عن نفسي: أنا اشتاق لشيءٍ لاأعرفُ ماهو تحديدًا، ربَّما اشتاق لأيام لم أعشها مطلقًا، أومرَّت عليَّ كالسَّحاب دون أن انتبه لها، دائما أرغب في فعل شيء لا أعرف ماهو أو قولِ عبارات أجهل فحواها... ليس لفراغٍ في الوقت وإنَّما لفراغٍ في جوفي تشكَّل شيئا فشيئا، وكبُر معي مع مرور السَّنوات تلوى السَّنوات لأودع طفولتي القاسية واقتحم المراهقة وقد فتحت لي باب الضَّياع على مصراعيه... لكنْ لابأس... أنا من البشر الذِّين تعوَّدوا أحزانهم وتأقلمُوا مع عُزلتهم، ففي عطلة الصَّيف: كنتُ أعود للبيت لتستمد الخالة «لجين» الجفاء من حرارة الجوِّ وجفافه، و أما الشِّتاء فاقضيه في المدرسة حيث لا أحد يهتم لتغيير ملابسك إنْ بلَّلها المطر، ولا أحد يهدِّئُك من صوت الرَّعد والعاصفة .

لم أعد كثيرَ الكلام ولا كثير الأحلام ولا الأصدقاء لي قليلٌ من كل شيء، وحياتي مملَّة دون حماس أو جنون، لم أكن أعرف أنَ فقد الحماسة في ربيع العُمر يعني أنِّي عشبةٌ ضارَّة لا برعما ينتظرُ الجميع إزهاره.

كيف حالكَ ؟

كَمْ من الغدر يكمُن في هذا الاهتمام المزيَّف ؟

ستيفانو سورنتينو

(٥)

مضت أيامٌ لا اتذكَّر منْها سوى أنَّ الأرقام وحدها من كانت تتغيَّر... شُهور... سنواتٌ وسنوات... ونجحتُ في اجتياز الامتحان الذِّي يُخولني دخول الجامعة، هذا لا يعكسُ شيئا من الاجتهاد بل يعكس الجهاد والنِّضال بعيدًا عن أدنى شروط النَّجاح، لم أجتز الامتحان إلا بعد أنْ أعدت السَّنة عدَّة مرَّات، ولم يكنْ تقديري يتيحُ لي خيرات عديدة في الجامعة لكنَّي كنت ناجحا على أي حال.

أتذكَّر حفلة النَّجاح، كان أبي يرتدي طقْما أسودًا يظهرُ من خلاله الوقار مع شعرات بيضاء بدت على ذقنه مؤخرًا، أمَّا «أمِّي لجين»... كما صرتُ أناديها مؤخرًا، فكانت مُحجَّبة كالعادة تُمسك باقة ورد بيدها اليمنى وبيدها اليسرى تمسك بيد فرح، الصغيرة كانت ترتدي فستان أبيضا بربطة حمراء على خصره مع حذاء أحمر منقط بالأبيض .

أخي «أيمن»، مزال يُكمل تعليمه الثانوي، إنَّه طبيب المستقبل-في نظرهم- ارتدى في حفل التكريم بنطلون جينز -اختاره على ذوقي- وحذاء رياضي، بدا وسيما جدًّا بل أكبر من عمره، خاصَّة أنَّها المرَّة الأولى التِّي يُسرح فيها شعره للأعلى... بَدوْنا عائلة سعيدة، بدونا عائلة واحدة، وهي كذلك من دوني لأنِّي لم أشعر أبدا بالانتماء.

أما أنا فكنتُ باللِّباس المدرسي الموحَّد، الذي تغيرت تفاصيله، لكنَّ ألوانه الدَّاكنة بقيت على مرِّ الزَّمان حتَّى ترسَّخت في ذاكرتنا لترمز لكلِّ ما عشناه وكلِّ ما حُرمنا من عيشه، أصبحت تلك الألوان جزء من شخصيتنا، من هويَّتنا، من ملامحنا، فأسوءُ اللَّحظات كانت بها والفرح الذِّي لم يكتمل كان بها، أما

عمِّي فقد كان غائبًا بسبب سفرة عمل مع زوجته والصَّغيرة «جيداء»، وقد حضر الحفلة ابنتا عمِّي «أحلام» و»رفيف» التي تكبرني بسنوات فلم تكف عن نصحي طوال الطريق حتى مضى كلُّ شيء على خير ما يرام .

بعدها انتقلت للعاصمة لألتحق بالجامعة

لم تكنْ رحلةً طويلة جدًّا لكنْ منذ وصولي لأعتابها، استنشقت هوائها المختلف، ميَّزت لهجتها، وثياب سكانَّها وهندسة البيوت... شواعرها أوسع، شعرتُ أنها تحتوي الجميع ولكنَّها لاتهتم لأمر أحد ... لا أحد هنا ينشغلُ بالثَّاني، وهمُّهم الوحيد هو انجاز عملهم وفعل ما يتوجَّب فعله دون أنْ يأخذ بيد من يحتاجه، فنادرًا ما تشاهد شخصا قام بمساعدة عجوزٍ على عبور الشارع أو حمل أغراض ثقيلة على امرأة الحامل.

عند قدومي لها أول مرَّة لم تكن تبدو لي كما أراها الآن، فالبدايات دائما أجمل... أول عبارة قرأتها في المحطة هي (أرصفة الوصول) تأمَّلتها طويلاً، اعتقدتُ أنَّ العبارة تعني الوصول للمكان، للغاية، للهدف... لكنْ مع الوقت عرفتُ أنَّها تقصد ضفَّة القضاء المحتُوم وباب القدر الذِّي يجبُ أنْ أعبُره.

وبين من يعرفُ وجهته ومنْ ينتظره أهلُه بشغف، بين من يتشَاجر مع أمتعته وعيناه على أطفاله، ومن يحمل هاتفه ليبلغ أحدهم بوصوله.... أجدُ نفسي جالسا أُشاهد اللافتات الضَّوئية ولوحات الإعلانات، دون أنْ تكون لديَّ أدنى فكرة عمَّا سأفعل وأين أتجه أوأقيم... كمْ هو مؤلمٌ أنْ تشعرَ بالغربة في وطنٍ تحملُ جنسيته والأكثر إيلامًا أنْ يلازمك هذا الشُّعور دائما.

أكثرُ سؤال تبادر إلى ذهني وأنا أشتمُّ رائحة الطَّعام المتسلِّلة لأنفي من مطعمٍ

بالجوار... هل مافي حوزتي من نقود يكفيني، إلى أنْ أحصل على عمل؟
لا أدري كم من ساعةٍ بقيتُ هناك، لكنِّي منذ اللَّحظات الأولى التي وطأتُ فيها المكان عرفتُ أنَّ هناك من يكسبُ مالاً هنا من سرقة المحافظ على غفلةٍ من أصحابها... فبقيتُ أُراقبُ وجوه المارَّة الشَّاردة والتقط أطراف أحاديثهم... إلى أنْ جاءت عجوزٌ يبدُو عليها التَّرف فجلست أمامي ... كأنَّها مبعوثٌ من السَّماء .

أخرجت من حقيبتها قطعة خبزٍ وبدأت تتفتِّتها وتلقيبها قطعةً قطعةً إلى الحمام الذِّي كان يبدو أنَّه أيضا في انتظارها و يتجمَّع حول الفُتات وحولها... قالت لي كلمتها بثقة وحكمة:

– أترى كيف يتجمَّع الحَمامُ على مصدر رزق لم يتعبْ من أجله. تساءلت في نفسي لماذا قد تقول لي هذا؟ هل ترى أنِّي سارقٌ مثلا؟

ثم استرسلت وقد خطفت عيناها على أمتعتي: يبدو أنَّك جديدٌ هنا يا ولدي، ستلاقي مشاكل كثيرة في البداية، قد تفشل لكنْ إياك والاستسلام... لا تكنْ مثل هذه الحمامات أُطعمُها دون أن تشقى، وتُرسل الرَّسائل لأبنائي

أجبتُها ساخرًا:هههههه... لكن هذا ليس زاجلاً ياخالة!!!!

_ أيًّا يكنْ... لا يجبُ أنْ تكسبَ قوتَها بهذه الطريقة

_ إذنْ، لماذا تطعمينها؟

_ لا أدري... أشفقُ عليها من نفسها، عوَّدتُها أنْ تفعل هذا، وعوَّدتُ نفسي أيضا.

_ أنتِ دائما هنا؟

_ أجل انتظرُ ابني هنا دائما لكنَّه لا يأت !!!!

لم أملك عباراتٍ تُواسيها، فتنَهدَتْ لتُكمل كلامها وهي تخرجُ قطعة أخرى من الخبز:

لاتتعوَّد يابني ... أقصى شيء أن تتعوَّد!

لا أدري سبب النصيحة، فأنا عادةً أفقد الأشياء قبل أنْ أتعوَّد عليها، بل قبل أن أصل إليها حتى، لذلك لم أجبها وبقيتُ اتفرَّج عليها وهي تبتعِد حتَّى اختفتْ دون أنْ تودِّعني أوتستأذن بالمغادرة، بعدها حملت أمتعتي ومضيت لوجهةٍ مجهولة. لقد فتحتْ هذه العجوز دُرج جراح دفينة، وأخرجت ملف الهجرة والاغتراب، ماذا لو تخليَّت عن كل شيء هنا، وركبت البحر؟ ففي هذه الضِّفة لم أتصالح مع الحياة، لا أملكُ أمًّا تطعمُ الحمَام وتنتظرني؟ فجأة شعرتُ بحريق شبَّ داخلي لم يلاحظه أحد، لأنَّه من دون جمرٍ أو دخان أو رماد، شعرتُ بالإكتواء بينما بدوتُ في الظاهر على طبيعتي، فاستجمعت قواي وواصلت المسير.

كان لزامًا عليَّ أنْ أحصُل على عملٍ وأنْ استأجر بيتًا، فلايصحُ أنْ أعود للمنزل بعدَ كلِّ هذه السَّنوات فأنا لا أشعر بالانتماء إليهم إلا اسميًّا مع رشَّة عاطفة صغيرة. عملتُ سائقًا لإحدى الشَّركات في أوقات فراغي، ولم يكنْ هذا العمل مربحًا لكنَّني كنتُ أتدبَّر أمري على كلِّ حال، خاصَّة أنَّني لم أعد آخذ مصروفًا من أبي كالسابق، ثم استأجرت بيتا هشًّا في حي قصديري بأجرٍ زهيد، لأنَّ راتبي لا يسمح بأفضل منه.

يوجدُ خلف البيت ساقيةٌ من المياه العفنة، هي مرتعٌ للجرذان باللَّيل ومصدرٌ

للروائح الكريهة بالنهار، أمَّا البيتُ من الدَّاخل فقد كان مريحًا لولا الرُّطوبة و قلَّة التهوئة.

«أسامة»

...هو رجلٌ يسكنُ في نفس الحيِّ الهشِّ الذِّي أقيم فيه، الجميع يناديه «ذياب»، في البداية استغربت التَّسمية واستنكرتها، لكنَّني مع الوقت ادركت أنَّه اسم على مُسمَّى، مظهره لا يُوحي بخبثه، كان يفوقني طولا بقليل، أسمَر البشرة، يلبسُ نفس الثِّياب تقريبا كُلَّ مرَّة، ملامحه بريئة، بدأ يقترب منِّي بوتيرة مُتسارعة، أذكرُ أنَّه كان صاحبَ الفكرة في أنْ نستأجر نفس البيت لنتقاسم مصروف الإيجار ونوفِّر المبلغ لأمورٍ أخرى، قبلت عرضه لأنَّ ذلك يعني تقليل المصاريف، لكنَّ ذلك لم يكن عرضه الوحيد، فبعد أيَّام من عيشنا سويَّة، لاحظتُ تودُّده المبالغ فيه، إلى أنْ صارحني بأنَّه مُدمن مخدرات، وأنَّ ترويجها مدرٌ لارباحٍ طائلة، لولا أنَّه يخسرها كلَّ أسبوع على طاولة القمار، و أنَّه بحكم انشغالاته لا يُمكنه تقديم الممنوعات في الموعد، وأنَّه يتعيَّن عليَّ أنْ أنوب عنه لأنَّه لا يثق بغيري.

لقد كان المبلغ مغريًا، حتى وإن قاسمته معه مناصفةً... لكنَّني رفضتُ بشدَّة، ماذا عن الشرطة؟ ماذا لو انكشف أمرنا؟ مازلت أدرُس... هل سأُمضي بقية حياتي في السِّجن؟ ثم إنَّ عملي كسائق يوفرُ عليَّ مصاريف التَّعليم والسَّكن. تعالتْ أصواتُنا تلك اللَّيلة فشجارنا كان حادًّا، ولم يتمكَّن من اقناعي، فمعظم الكلمات التي كنت أتلفظ بها هي: لايمكن... لا أقدر... لاأستطيع... ثم طردتُه من المنزل، رغم أنَّه قد دفع شطر إيجار هذا الشهر، لكنَّه لم يقاوم طردي له وحمل جاكيته وهمَّ بالخروج، فأشار لي بإصبعه عند الباب: ستعود لي

«أيهم»، ستعود... لا أحد يقول لي لا... تذكَّر كلامي.
ذياب»... أنتَ واحدةٌ من أكبر زلاَّتي
أنتَ ذنب من أعظم خطيئاتي
مثَّلت الصَّداقة في أعلى المِنصَّات
فصدَّقت وودَّك دون دليل أو إثبات
ولبست الكرم... تجملت بأحسن الصِّفات
ولتُكمل نهاية المشهد بمأساة
قذفتني للبحر دون طوق النَّجاة
فانتهت المسرحيَّة
كانت بعنوان:
الضَّياع... أسلوب حياة

لم أنم تلك اللَّيلة، ولم يعرف النُّعاس طريقًا إلي، صدق من قال: إنْ جفون الضَّائع لا تغفو. لقد فكرتُ بكلِّ ما مررت به في الماضي، وبما سيكون عليه المستقبل، وباللحظة المؤرِّقة الفاصلة بينهما؟ !

وفي الصباح أبكرتُ إلى عملي، أقود السَّيارة وأنا في عالم آخر، أتخيَّل أمورا كثيرة تتزاحمُ برأسي، لقد نسيتُ نفسي، ولم أنتبه إلا وأنا ارتطم بسيارة إحدى الآنسات... كان اصطداما عنيفًا لكنَّ الله سّلَم، لقد كنتُ مسرعًا فلم انتبه للإشارة .

نزل كلٌّ من سيارته... لقد كانت ترتجف خوفًا، ثم تقدمت بخطوات مُتسارعة نحو موقع الحادث، قبل أنْ تضع يديها المرتجفتين على وجهها، وبدأت تتمتم

بكلمات: بين دعاء واستغفار، كنت انتظر منها لومي والصراخ عليَّ باعتباري المذنب والمتسبِّب في الحادث، لكنَّها لم تفعل هذا أبدًا، لقد كانت خائفة جدًّا، فحاولت مواساتها مع أنِّي كنتُ بحاجة لذلك.

في طرفة عين واحدة بدأ النَّاس بالتَّجمهر، مع الشرطة لاتخاذ الإجرآت القانونية

– يا إلاهي من أين آتي بمصاريف التَّعويض والصِّيانة؟

أريدُ سعادةً صَغيرة، لتكنْ بِهذا القدْر بحيث لا يُريدها أحدٌ

منِّي

ناظم حِكمَت

(٦)

مرَّ أسبوعٌ على الحادث، فُصلتُ من العمل... نفسيتي متعبة... أجدُ نفسي ضائعًا: لا عائلة لاعمل، حتَّى امتحانات هذه السنة تغيبت في معظمها، بحوزتي بعض المال لأسُدَّ جوعي وإيجار المنزل، ولكنْ ماذا بعد؟؟؟

كان يجبُ أنْ ألجأ الى الله ورحمته الواسعة، وكان عليَّ أيضا أنْ لا أذهب إلى «أسامة» منكسرا، فكَّرت بأنَّها ستكون مرَّة واحدة، وأنَّني لن أتعاطى مخدرًا، سأبيعه فقط ونتقاسم المبلغ، ثُمَّ يمضي كلٌّ في سبيله، لحين حصولي على عمل محترم

– نسيت أنَّ الكسب الحرام يجعل الحياة ضنكا، وأنَّ الحرام يمحقُ بركة الحلال، نسيت أنَّ الله تعالى لا ينه عن أمرٍ إلا وفيه ضررٌ للجميع –

ليتك تعلمين أنَّ أوَّل أيَّام عملي مع «أسامة» كان ذاته يوم الحادثة، كانت ملامحك مرتعبة وصوتك الهامس وكلماتك غير المفهومة وعطرك الآسر، كلُّها تفاصيلٌ تسكنُ مخيِّلتي، لا أنسى منها تفصيلا واحدًا... طريقة سردك الحادث للشُّرطي... رجفة يديك... دموع عينيك... وكلُّ ما يتعلَّق بك كان الجزء المفضل من حياتي كلِّها، فأيُّ باقة من السَّعادة أنت؟

هل تذكرين يا «راما» يوم سألتك عن طموحك في الحياة، قلت بخفر: أنَّك ستصبحين قاضية، وستكونين عادلة، وأنَّك لن تفكري إلا في أهالي الضَّحايا، وحرقة أكبادهم، ثم سألتني عن عملي، فأجبتك: مجرم...

سامحيني، هذا لم يكن مزاحًا، فأنا لا أستطيع الكذب في حضرة عيونك.

ربَّما ليس ضعفي ووِحدَتي من جعلني ألتحق بعصابة «أسامة «، ربما لأنِّي شعرتُ

بحقارتي أمامك يومها، فأنتِ حلمٌ يصعبُ أنْ يتكرر ويستحيل تحققه.
عندما استمرينا في اللِّقاء بعد الحادثة، أدركت أنَّ الناس معادن، وكنت المعدن النَّادر، الذِّي عثرتُ عليه صُدفة... لكنَّني كنت أجهل أنَّ الحُبَّ الذِّي يتكوَّن من أوَّل حادثٍ سينتهي بزلزلة تسونامي.
اكتشفت يومها أنَّ للحياة عدَّة زوايا، وعرفت وقتها أنَّ السَّعادة تنبُع من داخلنا وليس من حولنا، لقد كانت السَّعادة بالنِّسبة لك قرارًا واختيارًا، وهي بالنِّسبة لي: «أنت» لأنَّني لم أعرفها قبل أنْ أعرفك.
لطالما استغربت من نفسي كيف أصبحت أُحبُّ الأماكن التِّي تجمعنا، كيف صرت اتشبَّه بك، واستخدم كلماتك، وكنت ترين في عيوني الإعجاب يكبُر كطفلٍ صغيرٍ، يكبر في قلبي دون اعتراف، وكنت أرى في عينيك الاشفاق على طفلٍ يتيم .
«راما»... سجَّلتُ صوتك في حوارنا لاستمع إليه بدل الموسيقى وأنا على الطَّريق، وقبل أنْ أنام، وكلِّ مرَّة أسمعها كأنَّها أوَّل مرَّة، فيزيد شوقي للقاء جديد، فالأصوات والرَّوائح والأماكن... تجعلُنا نشتاق أكثر... لقد صار شغلي الشَّاغل متى وكيف سألتقيك؟ فثقيلٌ عليَّ أنْ انتظر صدفة أخرى تجمعنا، وأثقل منه أن أطلب منك الحضور.
بسببي تأخرتي يومها عن مسابقة القضاء، لكنَّني واثقٌ أنَّك ستنجحين، لأنك مثابرة، وتعرفين بالضبط ما ترغبين من الحياة، بعكس العشوائية التي أسبح فيها، ستنجحين... لأنَّ مهنة القاضي وُجدتْ لمن يحملون بريق العدالة في عيونهم كتلك التي أراها دوما فيك .

أذكر أنَّي كنت نائما، عندما رنَّ هاتفي عصرًا، كنت أنت المتَّصل، تصرخين فرحًا بالنتائج، يومها دخلت سلك القضاء من أوسع ابوابه، وماهي إلا فترة قصيرة ويصمت الجميع بأمرك، ويتكلمون بأمرك، ويبرِّر الجميع مكانَ تواجده وفعله، لإقناعك، ستُصدرين الأحكام، إلا الحكم على قلبينا ومشاعرنا... فقضيَّتُنا ستبقى مؤجلَّة مع وقف التنفيذ.

«راما» هل تذكرين؟

... يوم أريتك قلادة أُمِّي، تحسَّستِها بأناملك الخجولة في لحظة غشيها الحنان، كنت تنظرين إلى الصُّورة بودٍّ لم أره من أحدٍ قبلا:

– أنتَ تُشبهها !!!!

– تقولين هذا مجاملة... الجميع يقول أنِّي لست كذلك !!!!

– هي تحمل ملامح خفيَّة ألمحها فيكَ أحيانا... رابط الدَّم بينكما لا يمكنُ اخفاؤه.

ثم أدرتِ القلادة ورأيت الفتاة الصغيرة «رودينة» الجميلة ذات الشرائط الملوَّنة، فتغيَّرت تعابير وجهك، وعقدت حاجبيك وأصبحت تدمدمين كلاما غير مفهوم فسَّرت ذلك غيرة... أترين، أصبحتُ مثل الخالة «لجين» أُفسِّر الأُخوَّة... غيرة .

– هذه «رودينة» ماذا تفعلُ مع أُمِّك في الصُّورة ؟

– هل تعرفيها؟

– لماذا تحتفظ بصورتها؟

– كانت زميلتي في الابتدائي ولا أعرف عن أمرها شيئًا الآن، لقد كانت ابنة

رجلٍ كفيف طيِّب وامرأة عدائيَّة... لكنَّك ذكرتِ اسمها للتَّو... هل تعرفينها؟

– كلا... لا أعرفها، لقد ذكرتَ اسمها منذُ قليل.

ضلَّت صامتة تُحاول الكلام، لكنَّها كانت متردَّدة، وتحت ضغطي وإلحاحي الذي يتزايد مع تزايد صمتها، تكلَّمت أخيرًا:

«رودينة»... «رودينة» أُختي... تكبرني بعشرِ سنوات

حقًا... لا أُصدق !!!! «رودينة» هي أُختك؟ أيُّ قدرٍ هذا ؟ كيف لم يخطرْ لي شبَهكُما؟

رحتُ استفسرُ منها كيف تسير أُمورها وكيف هي الحياة معها، فاقترحت أنْ تُعرفني عليها.

يوم التقيتها تخيَّلتُها «راما» بتفاصيل أكثر بروزا، نفسُ الخجل ونفس العيون هي حقًا نسخة منك! لم أكنْ لأُشبه أخي «أيمن» لهذا الحدِّ، بل ما كان ليخلق أُختين بهذا التَّشابه غيركما، أنتما توأمٌ مع فارق السنوات.

يومها كانت مستعجلة، ربما هذا مايعيبكما: دائما مستعجلتان، فأنتِ تستعجلين وعودي التِّي لم أقطعها، وحياةً لم نخطط لها، وزفافًا لم نُعدَّ له وتسمية أطفال قدْ لا نُرزق بهم، غير أنَّ ذلك كان في خيالي دون أن أتلفَّظ به فعلى ما ستلومينني... لا أرغب أن أُورِّطك معي رغم أنَّني متورط بك.

أدينُ لك باعتذار، واعتراف... وحياة خالية من الألم

أدين لك بتفاصيل لم نتبادلها لتتَّضح صُورة علاقتنا

وبماذا أدين لك أيضا؟ هل نسيتُ شيئًا؟

أعلمُ أنَّ أُنثى مثلك أنانية لا يروقها مشاركةُ مايخصُّها، لكنَّني لا أدري كيف

أصبحتْ «رودينة» هي المرأة الوحيدة التِّي أنساك في حضورها دون أنْ أخشى أنْ أفقدها أو تتركني، عيوني ترى فيكما نفس الشَّخص، لكنَّ قلبي يرى فيكما روحين منفصلتين، أنتما زهرتين ويستنشق عبيركما أنفٌ واحد...

هل تذكرين؟

يوم عرفت أنَّكما أختان

والبذرة التي نسيتها أزهرت وردتين

والرُّوح التِّي آنستها صارت بجسدين

والضَّحكة التِّي سحرتني تضاعفت مرَّتين

هل تعرفين ؟

أنَّ الحياة قبلكِ، كانت عذاب وجحيم

وأنَّ الأحلام قبلك تولدُ من رحمٍ عقيم

فهل تعتقدين؟

أنَّ أيامي لم تعدْ تخطو خطا البائسين

وأنغام نبضي هجرت اللَّحن الحزين

كلا... فأنتما همزة الوصل

بين ماض مقرفٍ ومستقبل لعين

لا تغضبي إنْ قلتُ أنَّها تفوقك حنانًا... تفوقك حضورًا... أنت الصغيرة المتهورة، صغيرة وإنْ كبرت، وهي امرأة منذ أنْ عرفتها صغيرة، غير أنَّ كلاكما أنثى لقلبي.

لاتأخذي الأمر على أنَّه خيانة، فأنت من تجالسين فكري في صحوته وترافقينه

حتَّى يتلاشى مع أني استمتعُ بصحبتكما داخلي، فأتجاوز مرحلة التَّذكر إلى تأليف مشاهدَ قدْ لا تحدثُ مطلقًا...

فلنكن أكثر واقعية:

هل سبق لك أنْ وجدت نفسك في مفترق طرق؟

سيصعب عليك الاختيار بين الطَّريقين، سيغدو كلُّ شيء مُتشابها في البداية مما يزيد اتخاذ القرار صعوبة، ثم فجأة من دون مبررات تميل النَّفس لإحدى الطريقين كمحاولة يائسة لقمع التَّشويش والفوضى والحيرة... هذا لم يحدث معي، فلم أقف يوما أتأملكما واختار بينكما.

أعرف أنَّك سلوكي ومسلكي، متاع سفري ومتعتي، فمسرورٌ أنا لخوض تجربتك ومغامرتك .

دلِّيني على طريقة أجعلك فيها تعرفين أنِّي غارق في بحيرة من الرِّمال المتحرِّكة كلما جربت الخروج سُحبت للأعماق أكثر ولا أحد يملك حيلة لإخراجي، كما أنِّي عاجزٌ على انتشال نفسي.

تلك الرمال جعلت منِّي مجرمًا مرغمًا، فقد أكملت المبادلة عوضًا عن «أسامة» مقابل المبلغ المتَّفق عليه، صدِّقيني لوعملت لأشهر فلن أتمكن من جمعه .

فقام أحدهم بتصويري، وقدَّم الصَّور لجماعة «أسامة»، وصارت الصُّور مصدرَ تهديدٍ لي، فإمَّا أنْ أواصل معهم وأحصل على نفس المبلغ كلَّ مرَّة أويتمَّ فضحي للشُّرطة، فرضختُ للابتزاز.

الأفكار التّي يُركز عليها العقل تزدادُ اتساعا ورسوخًا

نورمان فينسنت بيل

(٧)

قرَّرت عند خروجي اليوم إنْ سألني أحدهم كيف حالك؟ سأجيب أنِّي لست بخير... أو على الأغلب لا أشعر أنِّي بخير، مزاجي متعكِّر وسيئ وأعيش أيام صعبة، متعب حدَّ المرض ومرهق لدرجة الأعياء، لا النَّوم يريحني ولاالشَّاي الأخضر يهدئ أعصابي حتَّى عزلتي باتت أقبح من أن توجد الهدوء حولي، فالفوضى في داخلي والضَّجيج في ذهني، وأنا وحدي من يسمع صوتَ ارتطام الكواكب في مجرة نفسي الدَّاخلية التِّي لم اكتشف لليوم أبعادها وإلى أيِّ درجة يُمكنها أن تتحمَّل الظَّلام والبرودة... وحدي من أخوض حروبًا وأشهد مجازر لا دماء فيها ولا يعلم أحدٌ من أمرها شيء، لأنِّي القاتل والمقتول والأعزل والمسلَّح في ذات الوقت، والعزلة أقصى من أنْ تصير ملجأً أسكن إليه واتخذ في أحد أركانه ورشة لممارسة الهدوء، وصناعة الصَّمت، واتفنن في التَّجاهل وتزيين السَّلام الرُّوحي كغطاءٍ لعلبة أضع فيها الماضي.

آه... لا أقدر على الخروج منْ هذا الوضع فلا البكاء ولا الصُّراخ يجدي، مع إنِّي لم استطع تجريب أيَّ منهما، قد يكون أسوء مافي الشَّخصية المدمرة ذاتيا أنَّها فقدت القدرة على ذرف الدُّموع، وفقدت شجاعة البكاء وجرأة الصُّراخ وبصراحة أكثر وتعبير أدق، أنا أعلم إنِّي منْ ضغط زرَّ التَّدمير الذَّاتي... لكنْ هذا لم يكن قرار ولا اختيارًا، هو أحد الخطوات في طريق موجَّه لا رجعة منه واللاَّفتة الوحيدة في سبيلي هي الاتجاه الاجباري... فمواصلة الحياة تستلزم ضغط الزِّر كمرحلة أساسيَّة للارتقاء في مراحل اللعبة.

من وقتها وأنا أشعر أنَّ النَّدى الذي يتغنَّى به الشُّعراء ويُسمِّي الأباء بناتهم به

يُشعرني بالصدأ على عكسهم، فبدل أنْ يكون جزءًا من الجمال في السحر أشعُر بالتعفُّن مع إشراقة كلِّ شمس، من وقتها وشظايا انفجار الأفكار اليائسة تحاصرني وتعصرني، وتجعل مني لقمةً سائغةً للنَّدم وفريسة سهلة بين أنياب البؤس. أعلم أنَّ الرَّاحة للمُجرمين أمثالي لن تكون بعد الموت، فلماذا لم تأت إلى حدِّ السَّاعة، أم أنا لست على قيد الحياة ؟

تُراها... هل أضاعت الطَّريق أم أنَّها لا تملك القرار على الدَّرب الذِّي تسيره مثلي؟

ربَّما أنا على قيد الوجع، على قيد الحسرة على قيد الحزن أو أيَّ شيء عدى الحياة، كم أشعر بعجزي أمام نزواتي وأنِّي حبيسُ جسدي الذِّي لا يتوقف عن تذكيري بأوَّل مرَّة تعاطيت فيها... تلك نقطة اللاعودة ولا رجوع، كم أرغب أنْ اتحرَّر من ذاكرتي ومن معاناتي بعد تلك اللَّحظة المشؤومة... بعد نشوة مخدرٍ لنْ تتكرَّر، لكنَّني لا أستطيع... كيف لشخص سقط في البئر أنْ يخرج منه دون أن يقدِّم له أحد حبلا أو سُلَّما... كيف لشخص لايجيد السِّباحة وألقى بنفسه في بحر هائجٍ أن ينجو من الغرق دون طوق نجاة... لايمكنني أنْ أُقلع عن المخدِّر إنْ لم أستند على يدٍ تنتشلني من إدماني وهلوستي، وبالمقابل لا أقوى على طلب المساعدة من أحد حتَّى أنت «راما».

ليس ذلك لأني لا أرغبُ في العودة لحياتي الطبيعية، بل لأنَّ الموضوع خطيرٌ ويستلزم شجاعة لم أُجبل عليها... يتطلب إرادة تزدادُ بوتيرة متسارعة وأنا كما تعلمين وحيد، ولا أثق بالجميع، وبالِّنسبة لي حكاية البطل المنقذ ستبقى مجردَ أمنية وحلم.

لماذا اللوم... فكلٌّ منَّا مدمنٌ على شيء ما، وبطريقة ما: هناك من يُدمن على الصَّمت ولا ينبس حتَّى لو صدأت روحه ولا يُحاور إلا نفسه، ويكتفي انه وحده من يعرف عمق جرحه، وحده يتقنُ كيف يخفي ألمه ويضمِّد ذاته بذاته دون أنْ يستند على كتف أحد.

وهناك من يدمن الإنترنت حدَّ المرض، حدَّ الهوس، لكنَّني على غرار النَّوع الأول أفهم هذا الصِّنف جيدا، هم من تعودوا على الأشخاص الموجودين فيها وفي مواقعها، فنحن نرسم ملامح لاوجود لها و نبني ثقة على أشخاص يكذبون حتى في أساميهم، ومع الوقت تتماهى الأرواح بعيدا عن الواقع، فنسدَّ بهم ذلك الفراغ الدَّاخلي الذي لطالما تعوَّدنا على صدآه، فيصبح الوهم هو الحياة، ويصير الخيال هو المحسوس دون أنْ يدركوا أنَّهم غُيبوا عن الواقع بنجاح، لينتهي بهم الأمر في قائمة الحَظْر .

على أيِّ حال كلُّ إدمان هو هروبٌ... حتى القُرَّاء الذين لديهم شراهةٌ في التهام الكتب، مثلك يا «راما»،

لنْ أقول أنَّه قدر، فأنا أعلم أنِّي ورَّطت نفسي، ولا ألتمس لها الأعذار... أعي جيدًا أنَّ المخدرات إثمٌ وخطيئة ملازمة لي، وأعلم حجم الخراب والدَّمار الذِّي سأعيشه، لكنَّني لم أولد مجرمًا، هم من جعلوا منِّي كذلك، هم من خلقو الضَّياع من حولي وأعدُّوا لي كلَّ الأسباب لأصير ما أنا عليه الآن، رسمُوا لي مَسارًا وأجبروني على سلكه.

هي لوحة رسَمتها الظُّروف بريشة الأشخاص المحيطين بي، وأقحموني في ألوانها الداكنة – وما أبرئ نفسي– لكني وجدت نفسي في البرية، فكان يجب ان تنمو

لي المخالب بدل الاستمتاع بأظافري الناعمة، وامسيتي انت عرين هذا الكيان المتاكل، فاسكن اليك كلما خيم الضياع، بل أنت النُّور الذِّي ينبعث في آخر هذا النفق المخيف، فيساعدني على الاستمرار، ومع كل خطوة أفقد جزءًا منِّي حتَّى إذا أوشكت على الوصول شعرت أنِّي أختفي تماما.

رامتي... معذِّبتي أنت... أتعذَّب كلَّما التقينا وكلما تواعدنا من غير وعود، كثيرة أنت على رجلٍ مثلي يبحث عن شخصيته بين الممنوعات، تراك أنت أحد الممنوعات التِّي لطالما رغبت بها ؟

تراك جرعة من نوع فاخر، يسرق منِّي حياتي ويتسلَّل في أوردتي، أم أنت الجرعة الإضافية في كلِّ مرَّة أتعاطى فيها... ومع الوقت أجد نفسي أدمنتك؟

صدِّقيني لاأستطيع أنْ ابتعد... قلبي يأبى الرَّحيل، وأنا لا أقوى على البقاء فكلُّ الكون يأبى بقائي، ولو وضع الكون والقلب في ميزان لمالت الكفَّة لك... لا يوجد أيُّ مخدِّرٍ في الدنيا مثلك أنت ولا توجد جرعة بتركيزك.

أنت فرحة عمري لسنوات محدودة... فهل أنا من سرقت منك السَّنوات أم أنَّ القدر سرقها من كلينا؟ من الصَّعب عليَّ أنْ أعود أدراجي حتَّى ولو كان ذلك من أجلك، فلا يمكن أنْ يبيع شخصٌ السَّعادة للناس، دون أنْ يُفكِّر بتجريبها، فطابخ السمِّ آكله خاصة وأنَّ ثمنها يرتفع مع كلِّ صفقة.

«راما»... يا وردتي التِّي أعلم أنَّ مصيرها الذُّبول وحديقتي التِّي سيكون جزاءها الهجران، وقمري الذي أوشك على الأفول، أنت وريدي الذِّي اشتقت لنقاء دمائه قبل أنْ أُفسده بذلك السُّم فأيُّ رجلٍ أنا... وأيُّ لعنة حلت بك .

وسألتني مرَّة:

– لماذا يبتاع الناس المهلوسات وهم يعلمون أنَّها ستودي بحياتهم؟... فكمية البؤس التي ستكون لاحقا أعظم من أنْ تُتحمل.

أجبتك: لا أدري...

لكنَّني اليوم أُدرك ان الجواب فيك انت، فقد عرفت منذ البداية انك سعادة وهمية واوصلت الحسرة والندامة بمتعة معك، علمتني كيف تصبح الآهات نغمات موسيقية وكيف تتحول معك الثواني لأقراط من الزمن تتزين بها حياتي لتبتسم لي بوجهها القبيح.

صدقًا أنا عاجزٌ على التَّحكم في نفسي وعن التَّوقف، فمحاولاتي تبوء بالفشل في كلِّ مرَّة أقرِّر فيها أنَّها النهاية ولن أعود للحُقن مجدَّدا، أجدني أعود دوما لنقطة الصِّفر... فعلِّميني هذه المرَّة كيف أقلع عن الادمان... ألهميني القوة كي اخبرك بمأساتي .

«راما»... آسفٌ لأنِّي مدمنٌ، واسف لأني أدمنتك... ولا يمكنني أن أتخلَّى عن إدماني ولا بوسعي التَّخلي عنك.

جئتك سائلاً أيها الدَّهر

عسى الفجر يدنو منِّي

عسى أنْ يزول عن خاطري الضُّر

فلا يعلم أحدٌ متى يفنى العمر

ومتى تصعد الرُّوح ويمتلأ القبر

أنِّي كُسرت كسرًا ما له جبر

فعِدْني أن يكون سؤالي لك سر

فللوفاء بالوعد نبل وأجر
فقال: اختصر... وعدٌ لك منِّي ونذر
أنْ لا يسمعه مخلوقٌ، جنٌ أو بشر
فقلتُ: إنِّي قد أدمنت في لياليك السَّهر
وأرى وجه «راما» في اكتمال القمر
وهي وحدها سيدة الحواس والفكر
فهل هذه تعويذة أم سحر؟
أم أنا مجنونُ ليلى في زمانه... دون أنْ اتلفَّظ بالشعر
فأجابني الدَّهر:
شهدتُ كلَّ الحروب وجلبت الثَّأر
وعرفتُ الرَّسائل والقصص التِّي تلقى في البحر
وعالجت جراح الغياب والفقد والقهر
لعمري...
أنك لم تبلغ من مجنون ليلى الخمس أو العشر

كلُّ ما يفعله الإنسان سرًّا في ظلمة اللَّيل يظهره الإنسان

علنًا في نور النَّهار

جبران خليل جبران

(٨)

عندما استيقظ صباحًا لا أفتح عيوني ولاأستقبل اليوم الجديد بنشاط، بل أبقى ممدَّدًا في مكاني أدَّعي النَّوم وأتخيَّل القصص وأسمع ما أنا أتوقُ لسماعه ومن الشَّخص الذِّي أختاره في مخيلتي... يستغرق منِّي الأمر وقتا لأعود لغرفتي وأحيانا يطول بي الأمر لأجد نفسي أغطُّ في نوم عميق مجدَّدا...

يشبه الأمر الأفكار التِّي تأتي قبل النوم، مع فارق بسيط... فالأحداث التِّي تزورنا عندما نأوي للفراش نعجز عن التَّحكم فيها، هي توليفة من: الحيرة والوهم والأرق، هي ليست خيالا بقدر ماهي واقع عشته ودفنت مرارته بعيدا لتُعاود الرُّجوع مرَّة أخرى، هي تصوُّرات متشائمة مزعجة، تأتي لتمنع عن العيون كُحل النُّعاس، ومع هذا تكون الغلبة للتَّعب في النِّهاية.

أفٍ... كم هو الليل قاس على أمثالي، كأنَّ الأمل والفرح ينصهران مع خيوط النُور في النَّهار، حتَّى إذا غربت الشَّمس حلَّ محلَّها التشاؤم والقنطة... غير انه في بعض المرات يمنحني نفحات من العطف، اقصد بها تلك الليالي التي احدث فيها «راما» برسائل نصية مكتوبة... كانت تسرقني مني وتضيفني الى نفسي بطريقة اخرى فلا انا ناقص ولا انا مكتمل، حتى اذا نفذ ما تأخذ مني شعرت اني لم اعد انا هو نفسي وتغيرت كليا، وفي بعض الاحيان تحدث شجارات بين ايهم الذي يرغب في الابتعاد، وايهم الذي تعلق ولا ينكر انه بحاجة لرسالة منك تطمنه و تطمئن عليه

أتذكَّر أوَّل رسالة بيننا، لقد تطلَّب الأمر شجاعة كبيرة لكنَّني فعلتها، فكنتُ المبادر:

_ مرحبًا

_ أهلاً «أيهم»... كيف حالك؟

_ بخيرٍ وأنت؟

_ بخير والحمد لله

_ ماذا تفعلين؟

_ على وشك دراسة ملف ما، وأنتَ؟

_أيُّ ملف ؟

_ عمل إضافي فقط .

_ هل تعملِين حتَّى في أوقات راحتك؟

_ ليس دائما... أقضي فترة راحتِي بين رواية أو كتاب

_ أيُّ نوعٍ من الكتب تقرئين ؟

_ كتب: القانون والتَّنمية البشرية بالإضافة لدواوين الشِّعر والرِّوايات...

كان ذلك كلَّ شيء تلك الليلة؛ فالتَّغطية عندي كانت ضعيفة مع أنِّي أعلم أنَّها بقيت في انتظاري... على أملِ أنْ أعيد الاتِّصال .

وفي الصباح، وبعد اجتماع طارئ مع جماعة «ذياب» تغيَّرت مجموعتي وتمَّ تحويلي مع رجلين آخرين، فعلى ما يبدو أنَّ الشُّرطة بدأت تشكُّ بتحركات أحدهم أو تشتبه به، وقد كانت العصابة على دراية بذلك.

ارتبكتُ كثيرا، فهذه المرَّة مختلفة عن سابقاتها... فقد تغيَّر المكان والفرقة حتَّى موعد استلام البضاعة قد تغيَّر إلى قبيل الفجر، لذلك كنتُ مجبرا قبل مغادرتي على أخذ حقنة أُخفِّف بها صُداعي الحاد، ذلك لأنَّني لم أنم طوال اللَّيل،

وعلى غرار كلِّ المرَّات السَّابقة جاءت سيارتان سوداوان أمام الحيِّ، فركبتُ مع «أسامة» في نفس السيارة.

لم أفهم مايحدث، حاولت الاستفسار من «أسامة» فعرفت أنَّه هوالآخر يُنفِّذ الأوامر دون أنْ يفهم أيَّ شيء، فخيَّم الارتباك على كلينا.

وصلنا للمكان وقد كان بيتًا مهجورًا، كما أنه قريب جدًا من الغابة، ركنَّا السَّيارتين جنب الجدار وبقينا هناك حتَّى وصلت سيارة واحدة، توقَّفت على بعد أمتار في الجهة المقابلة... نزل ثلاثة شباب لم نتعامل معهم من قبل، كان الظَّلام حالكًا وأضواء السَّيارات خافتة، تقدم رجلان وبقي آخرٌ يراقب من بعيد. أثار انتباهي الرَّجل الذِّي كان يسير نحونا، هو فتى صغيرًا دون العشرين من عمره -يبدو أن الدنيا أغوته مثلي- شعره، مشيته وحركاته، حتَّى توتره يوحي أنَّه أخي «أيمن» وكلَّما اقترب زاد تيقني بذلك، رغم أنَّ الرؤية لم تكُنْ واضحة، فمالذي قد يدفع «أيمن» ليكون هنا؟

هو محبوبُ أُسرته، يملك أمًّا ودفئًا عائليًّا، فلطاما رأيت فيه الطبيب الذِّي يداوي القلوب لا يحطِّمها -مثلي- أومهندسا يبني ويُعمِّر لايهدم ويكسر، كنت أُكذِّب عينيَّ للآخر لحظة، حتى قطعت الشَّك باليقين عندما تلفَّظ الرَّجل الذِّي معه بإسمه:

- «أيمن» أرِهم أمانتهم... - يقصدُ حقيبة النُّقود- فصرت أرتجفُ في مكاني لما نداه باسمه وكأنَّها أوَّل مبادلة لي.

كيف حدث معك هذا يا أخي، لكم رغبتُ من انتشالك من هذا الوسط القذر والمستنقع العفن، ومن كلِّ هؤلاء الأوغاد، لكنَّني تسمَّرت في مكاني،

وادَّعى كلٌّ منَّا عدم معرفته بالآخر لسلامته... ولتتم المبادلة بنجاح .
وهذا ماحدَث بالفعل ليركب هو بجانب السَّائق وعينيِّه ماتزال مثبَّتة فيَّ، فهو الآخر شعر بالاسغراب عند رؤيتي وراودته ذات الأسئلة التي راودتني .
وبعد رحيلهم بمدَّة غادرنا بدورنا، لكنَّ «أُسامة» فاجأني بسؤاله:
– هل تعرفه ؟
– من؟
– ذاك الذي كدت تلتهمه بعيونك ؟... صاحبُ القبَّعة.
– كلاَّ... يشبه شخصًا توفي منذ مدة.
– قد يكون هو ؟!
– يا رجل... هههههه، رأيت جثَّته بأمِّ عيني.
لا أعلم إنْ صدَّقني أم لا، لكنْ كان عليَّ الإنكار، فأنا أخشى عليه أكثر ممَّا أخشى على نفسي.
عندما وصلتُ للمنزل لم أتمكَّن من النَّوم... حملت نفسي لمنزل أبي والخالة «لجين» فور طلوع الشَّمس... لقد مرَّ وقتٌ طويل مذْ آخر مرَّة زرت فيها البيت، ما زالت تفاصيله لم تتغيَّر، حتَّى ألوان الدِّهان وطريقة ترتيب الأثاث...
استقبلتني الخالة «لجين» وابنتها «فرح» – في غياب أبي– وقد استغلت غياب الجميع لتشكو لي من ابنها، الذي لا تدري أينَ يذهبُ هذه الأيَّام، ولا يعود حتى الفجر، وإن سألته يجيبُ أنَّه برفقة أصدقائه الذين لا تعرف عن أمرهم شيئا، حتى أنَّ والدي هو الآخر عجز عن تدارك الوضع، بل إنَّها تخشى أن يحمل أغراضه ويرحل، ويستقل بمسكنٍ منفرد وحده كما فعلتُ من قبل، لقد

سألتني إسداء النَّصيحة له، لأنَّه أخي رغم كلِّ شيء.
هذه أوَّل مرَّة أرآها مُنكسرة ودُموعها منهمرةٌ بغزارة -في النِّهاية هي أم، وقلبُ الأم لايخطئ- واصلت حديثها عن عصبتيه غير المعهودة وكلامه البذيء معها، تقُول: أنَّها حاولت منعه من الخروج بالقوة لكنَّها لم تستطع .
آه ياخالتي... لو تعلمين أين رأيته البارحة، ومع هذا ادعيت أنِّي متفاجئ من حديثها وتفاعلتُ معها، ثم سألتها عن دراسته وتحضيراته للبكالوريا فقالت: إنَّه يتغيب كثيرًا ويرسب في كلِّ الامتحانات.
بصراحة عندما سألتُها كنت متوقعًا جوابها هذا... لكنْ ما لم أتوقعه أنْ تتوسَّلني كي أسامحها على كلِّ شيء فعلته بحقي، قائلة: إنَّها عدالةٌ إلاهية أنْ يختبرها الله بابنٍ عاقٍ مثل «أيمن»، لأنَّها لم ترعَ يتيمًا مثلي، ثم استحلفتني بأغلى ما أملك أنْ أمنعه من التَّهور وأن أحميه من كلِّ مكروه، معترفة أنَّ دلالها أفسده وأنَّها فشلت في تربيته.
فاحتضنتها كما يحتضنُ وليد أمَّه باشتياق:
- هو أخي... سأفعل ما في وسعي لحمايته... أعدك
من ثم بقيت تكلمني عن تصرفاته، حتَّى دخل علينا أبي فغيَّرنا الموضوع، ونهضت الخالة «لجين» لطهو الطعام، فتبادلت أطراف الحديث مع أبي حتَّى دخل علينا «أيمن» فلم يسلِّم علينا وكان سينصرفُ، حتَّى أنَّه لم يأبه لأبي الذِّي كان يصرخُ في وجهه ويستوقفه، فاستأذنت ولحقت به فورًا، كنت أركض خلفه في الرواق... ناديته ولم يتوقف، حتَّى كاد يغلق في وجهي الباب ممَّا اضطرَّني لمنعه بالقوَّة، فأمسكتُه من ذراعه بعدوانيَّة فأفلتها بعنف كأنَّه يضربني، وهمس في أُذني

-كي لا يسمعنا أحد-:

- أنت لا تعرفني... غادر من هنا... هذا كل شيء.

- «أيمن»... علينا أنْ نتحدث

- لا تذكُر أمام أيٍّ كان أنك أخي... لا حديث لك معي، ولا تعد إلى هنا

- علينا التَّحدث

- تكلَّم... أسمعُك

- ليس هنا... سيسمعنا والداك

- لن أخرج معك، أجننت ماذا لو رآنا أحدٌ معا... ستكونُ مصيبةً لكلينا.

- لمَ تفعل هذا ؟

- ليس من حقِّك محاسبتي، هل يُحاسب البائع الزَّبون على سلعة اشتراها؟

- لماذا تفعل هذا بنفسك؟ عُدْ إلى صوابك.

- هههههههههه وكأنَّك الملاك البريء، وأنت لمَ تفعل هذا... أخبرني يا...

- كنتُ مجبرًا... أُمُّك لا تستحقُ منك هذا، هي تتعذَّب من أجلك

- هل أخبرتَها؟ تكلَّم مالذِّي قلته لها تحديدًا؟

- لالا... لا شيء... لكنَّها قصت عليَّ تصرفاتك.

- «أيهم»... للمرَّة الألف، أتركني وشأني أعِ ماأفعل فلا تمثِّل عليَّ دور الأخ الأكبر الصَّالح، أُخوَّتك خطرٌ على حياتنا الآن، لو عرف أحدهم سنُتهم أنَّنا عملاء وسنقتل.

ثم أغلق الباب في وجهي فأعدتُ طرقهُ مرارًا وتكرارًا لكنَّه لم يَفتح، وتجاهلني كأنَّه لا يسمع.

عندما استدرت لمحتُ ظِلَّ «فرح» في آخر الرِّواق، أتصوَّر أنَّها استرقت السَّمع، ولا أعرف ماذا سمعت بالضَّبط، أخشى أنْ تُخبر والديها بالحوار بيني وبين «أيمن»، فرحلتُ سريعًا رغم إصرار أبي على البقاء وقضاء اليوم معهم .

إذا مَا جاء الفراق يومًا، وجاء بعد الفراق العيد،

فلا تنسى أن تفرح، ولا تنسى أن تضحك، ولا تنسى أن

تلبس الجديد

فاروق جويدة

(٩)

عدت في إحدى المرات إلى المنزل متعبًا يائسًا متثاقل الخُطوات، أطرافي لا تقوى على الحركة شهيتي مسدودةٌ... لا أرغب بتناول أيِّ شيء.

أدخلت يدي إلى جيب الجاكيت الدَّاخلي وأخرجت بطاقة الدَّعوة، ورحت أتأمل أبعادها وشكلها وألوانها وزخرفاتها، مكتوب أنَّ: حفل الخطبة سيتمُ غدا مع ذلك الرَّجل الذي أتجنَّب قراءة اسمه على البطاقة، لقد حصلت عليها صباح اليوم من «رودينة» قالت: إنَّ العائلتان مشغولتان هذه الأيَّام للإعداد حفلٍ مميزٍ يليق بهما.

– وأنا مُدعى بصفتي ماذا؟ سألتها..

– أنت صديقُ العائلة ستكون أختي مسرورةٌ بحضورك، لقد أخبرتني أنْ أقوم بدعوتك وأصرَّت كثيرًا على ذلك... فتعال رجاءً... كي تكتمل فرحتها.

قبلتُ الدَّعوة وأنا أدَّعي الثَّبات، إنَّ ادعاء القوة أكثر ايلامًا من الموقف نفسه، أن تدعي النبض وقلبك سيتوقف، أنْ تُجبر على رسم الابتسامة في حين تسجن دموعك عميقا... لا بدَّ أنَّك ستشعُر حينها أنَّك تتقمَّص شخصية غيرك، وتصبح شخصا ما ليس انت... وتمنيتُ لو بقدوري تمزيقها لكنَّني اكتفيت برميها على الأرض، ورحت أبحث في الخزانة عن لباسٍ يكون مناسبا للحفلة، لا لأبدو وسيمًا بل ليصدق الجميع أنِّي صديق العائلة... حتَّى أنتِ.

فلمَّا كان الغد تعمَّدت أنْ أذهب متأخرًا كي أبدو غير مبالٍ أوغير مهتم بهذه الحفلة البائسة، أوبالأحرى كي أظهر بمظهر الرَّجل المشغول الذِّي لديه أولويات أُخر.

«راما»... جميلة أنت بالأبيض، يليق بروحك أنْ تلبسه، إنَّ أجمل الألوان هو اللون الأبيض، ليس لأنَّه لا يخفي في داخله ما يحزنه مثلنا نحن البشر، فيعكس كلَّ الألوان، ليكون مثالا جميلا على النقاء الدَّاخلي فحسب، وإنَّما لأنَّه اليوم يلامس بشرتك، ويغتزِل بها فتصبح كلُّ الألوان حسودة له .

أيتها العروسُ الحزينة، إنَّ الحبَّ لا يعني الامتلاك، الحب ان افعل ما يسعدك رغم انه يبتر بروحي... فيوم قدمت وأخبرتني –عن رجل تقدم لك– باركت زواجك وأنا أرى في عينيك انتظارك لاعتراضي وغضبي، لكنَّني لم أفعل .

هل تستغربين برودتي... وتحتارين من ردَّة فعلي ؟

لا أُنكر أنِّي مُتعجب منهما أيضا، فلم اشعر اني انا نفسي وانا اكلمك... أقاسية هي عباراتي عليك؟ ولكنَّ الحياة أقسى ياعزيزتي

ليتك تسمَّعت لقلبي الذِّي صرخ: لا ترحلي...

لكنَّني تفوَّهت بعبارة دمرتني قبل أن تدمرك، وأحرقت صدري قبل أن يكتوي بها مسمعك، وإلى اليوم مازلت أتساءل هل للمخدِّر دورٌ في حديثي معك بتلك الطريقة ؟... نظرت في عيونك الدَّامعة المكسورة وسخرت منك، ووصفتك بالصَّغيرة الغبية، وصرخت في وجهك، ثم لأكمل صورة المعتوه، أخرجت القلادة وأريتك صورة «رودينة»، مع أنَّها لاتعني لي شيئًا، لا شيء على الإطلاق، لكنك بقيت ترمقينني بنظرات مستغربة وغادرتي دون أنْ تتلفَّظي بحرفٍ واحد، ما كان ينبغي أنْ أُوقفك فأنا أعلم أنَّ الزَّمن كفيل بمداواة جراحك وجراحي.

وها أنا ذا... بعد أسبوعين أحضرُ خطبتك... لأرى سعادتك عن كثب، وأدعو لك بالرَّفاه والبنين.

لكم تمنيتُ أنْ أكون مكانه، أن أكون العريس الذي تزفه تلك الزغاريد وفارس الخاتم وحارسه... رأيت خطيبك يتلقَّى التَّبريكات، ففهمت إلحاحك على حضوري:

كي تنتابَني مشاعرُ اللَّوم الدَّاخلي

كي أغار.. !!!!

وهذا ما حدث فعلا

لكنَّني سعيد من أجلك أيتها العروس الحزينة

راما... حياتك اقصر معي، ستنحصر سعادتك الى ان تتلاشى ولن يكون لك حصة من الفرح، لن يكون لك نصيب من الحرية والاحلام، فانا كاس فيها قطرات قليلة من الامل لا تروي الظمأ، فيؤلمني أن لانكون معا، لكن بالمقابل يعز عليَّ أنْ أحرمك من سعادةٍ تستحقينها حتى لو كانت مؤجلة .

بعد أيام من الحفل تذكَّرت العجوز التِّي قابلتُها عند وصولي إلى هنا فذهبت إليها في نفس التَّوقيت... لم تكن هناك فانتظرت قدومها هذه المرَّة، كانت تستند في مشيتها على عكاز وتسير ببطىء إلى أنْ جلست بجانبي وأخرجت من حقيبتها قطعة الخبز، وبدأت تفتتها وتلقي بها قطعة قطعة إلى الحَمام كما في أوَّل مرَّة شاهدتها فيها ... لم أنبس بكلمة – تبادر إلى ذهني أنَّها نسيتني تماما– بصراحة... لقد ارتحتُ عندما رأيتها، لكنَّني سرعان ما أادركت أنَّ وجودها هنا يعني أن ابنها لم يعد بعد، فقلت لها بهدوء ممزوج بشفقة:

– يبدو أنَّ ابنك لم يأت بعد...

– ويبدو أنَّك تعوَّدت، ولهذا عُدت!!!!

إذن هي تذكرني ... رُحتُ أسألها النَّصيحة:

يا بنيَّ إنَّ الأصعب من الذنب هو التَّعود عليه، والأسوء منهما هي المجاهرة به والأشنع منْ كُلِّ هذا أن لا يتسلل لقبلك ندم ولا تعترف نفسك لنفسك أنَّه ذنب أصلا... النَّدم أوَّل خطوات الاقلاع عن الخطأ... ثم أخرجت قطعة خبزٍ أخرى وأشارت عليَّ بأنْ أُطعم انا الحمائم هذه المرَّة، ثمَّ واصلت كلامها

لا أعرف أيَّ دولة هو فيها ابني الآن ولا أعلم إنْ كان حيًا أم لا، تراودني كوابيس أنَّه غرق في البحر، فمنذ رحيله لم أسمع عنه أيَّ خبر... لكنَّني واثقة أنَّه سيعود .

ثم التفتت إليَّ مبتسمة وقالت: ألا ترى أنَّك عدت أيضًا ؟ أعلم أنَّك تنتظرُ منِّي النصيحة لكنَّني لا أملك أدنى فكرة عن وضعك لأُرشدك يابنيَّ.

– والله ياخالتي وضعي لايختلف عن وضعك... لقد خطبها رجلٌ آخر

– إيه بنيَّ... تركتك لأنَّه كان شعورًا من طرف واحد ؟

– كلاَّ... لا أصلُح لها... لذلك تركتها تبني مستقبلها مع من يستحقها ويسعدها.

– ولماذا تقرِّر وحدك إنْ كنت صالحًا لها أم لا؟ الذِّي يحبُّ لا يرى عيوبا في الطَّرف الآخر فإنْ أحبَّتك بصدق سترى أنَّك مناسبٌ لها رغم كلِّ شيء... إنَّها منك أنْ لا تغيَّر نفسك من أجلها

– خلتُ فراقها أهون عليَّ من أنْ أُحوِّل حياتها إلى كابوس.

– وهل اقنعتها بهذا؟

– كلا

– آه يبدو أنَّه يوم آخر انتظر فيه عبثا... لقد نفذ مني الخبز اليوم.

ثم نهضت مغادرة والتفتت إليَّ وقالت:

إذا كنت مُستاء لهذه الدَّرجة على فقدانها، ولا يمكنك أنْ تتغيَّر من أجلها، فحاول أن تبتعد عنها لتُساعدها على نسيانك. في النِّهاية نحن لا ننسى الأشخاص بل ننسى مشاعرنا اتجاههم، لأنَّ ذاكرة القلب أضعف من ذاكرة العقل.

من قال أنَّ لغة العيون أقوى من لغة الأرواح، من قال أنَّ الكلمات تعبِّر عن المشاعر دوما، من قال أنَّ الرَّحيل يعني النسيان، كلٌّ هذه الأقاويل لا يؤمن بها نبضٌ صادق راما

(١٠)

دائما أتساءل كلَّما خلوتُ بنفسي: هل هذا شعور متبادلٌ أم أنِّي وحدي من يقتحم المناطق المحرَّمة؟ أحيانا أشعرُ أنَّنا أجمل ثنائيٍّ في الكون، تهتم لتفاصيل لا أكترث لها... وتذكِّرني بكلمات لم أُعرها أبدًا أيَّ اهتمام... وتتذكَّر مواعيد وتواريخ كنت قد نسيتها، وتتفنَّن في الغزل... لتنقلب فجأة وتصبح الغريب الذي لا أعرفه وأخشى حتَّى أنْ أُكلِّمه، وفي مرات كثيرة أشعر أنَّنا مجرد أصدقاء مع أنَّ كلانا لا يؤمن بمحض الصَّداقة بين شاب وفتاة، فهل أنتَ الحبيب أم الغريب أم الصديق؟

«أيهم»... كم هو ليلُ الفراق طويل ... لم أعرف طعم النَّوم تلك الليلة وحده الليل بظلمته يحتويني.

سهرت حتَّى الصَّباح... صوت السَّيارات تضاءل حتى اختفى وبقيت الإنارة في الشَّارع مضاءة والسَّماء تتلألأ بالنُّجوم في غياب القمر، لم أبكِ ولم أذرف الدُّموع... فقط أحاول أن أتنفس وأن لا أصدر صوتا يُوقظ أختي النائمة، حرامٌ أن يقطع نومها نحيبي.. وفي وسط هذه الفوضى التي اعيشها الان، أُعزِّي نفسي برؤيتك في الحفلة غدًا، وأتساءل هل أخطأت في قراءه عيونك؟

يوم قدمت اليك بكواليس حرب داخليه امنعها من الظهور وامنعها بالامتزاج بملامحي، كان شيء يغشاك، فلا أنا استطعت ترجمتها ولا قدرت أنت على البوح به لكن كلانا شعر به، من قال أنَّ لغة العيون أقوى من لغة الأرواح من قال أنَّ الكلمات تُعبِّر عن المشاعر دوما... من قال أنَّ الرَّحيل يعني النسيان، كلُّ هذه الأقاويل لا يؤمن بها نبض صادق،

شعرت أنَّك تُكابر
أم أنَّك بديانة الاهتمام كافر
والحادك من ديانتي ليس في دستورك من الكبائر
هاقد بلغ الحول والنصاب.. . فأريني كيف تجزء الكل من المشاعر
انا لست مسكينه على بابك... فاحتفظ بجزئي من الربع العاشر
ليس لأني لا احتاجه، ولكني معتادة على تقسيمك الماكر
حدثني عن الذكريات تلك التي نستضيفها حتى الصباح الباكر
ام تسمي بالنسيان عندكم، لاتلبث ان تحل حتى تغادر
حدثني عما جاء في عقيدتك عن الشعر و النثر و الخواطر
و لو اني اعلم سلفا ان القلم يجلد كما يجلد الزاني او ساكر
انا لا اعاتب... ولكن خذلانك يسري في اوردتي راجلا وضامر
فكنْ حذرًا أيُّها القديس... ففي كلِّ الأديان في الدُّنيا أنت الخاسر

قررتُ أنْ أنسحب وأتراجع، سأترك طريقًا لم تصلني إليك ولا نهايته انت، وطوبى لك الحياة من دوني... ومن بعدي، فالآن أنا أسيرة كرامتي، تشلُّ حركاتي وتكبِّل كلماتي فتغيرت شخصيتي وطبعي دون مبرِّر، وأبكي على كلِّ شيء دون سبب.
هل تعلم ؟؟؟

كثيرون هم الرِّجال الذين كتبو عني قصائد ملونة تصفني ب: فائقة الجمال والأخلاق... ومنهم من ضاعف دوام عمله ليتكَّمن من بناء مسكن في أقرب وقت... ومن بكى أمامي يوم رفضته ...ولم يذهب لعمله إلا بعد أسبوعين

ناهيك عن الأمَّهات اللاَّتي يتقدمنَّ لي لأنَّ أولادهن يثقون في اختياراتهن لكن... كلُّ هؤلاء ليسوا أنت... هم لايشبهونك حتَّى في أبسط التَّفاصيل .لا أرغب بمسكن لا تكون شريكي فيه... و لابقصيدة لست أنت من بعثر حروفها... أنت لاتقرأ شعرا ولا تكتبه، لكنَّ رسالة منك- بسطر اوسطرين - تسالني عن وضعي وتطمئن فيها عليَّ... كأنَّها ديوان كامل كتب من أجل، رسالتك حياة إضافية تكفيني كي أعيش عليها دهراً .

متى ستفهم أنَّك السَّعادة في حياتي، وأنِّي أرغب بك بقدر التَّجاهل الذِّي يحصل عليه كلُّ هؤلاء، مقتنعة بعيوبك أكثر من إيماني بميزاتهم، أفضِّل أن أعيش غربتك على أنْ اتَّخذ أحدهم وطنًا لي .

عندما حلَّ الصَّباح كان لابد من التزيُّن والتَّجمُل... فهذه هي طقوس الجنازة قبل الدَّفن، وأصرخ دون صوت واحتظر دون الموت، ولا أحد يهتم لي... لا أحد يشعر بي... حتَّى أنت.

«أيهم»... أنت الرَّجل الوحيد في حياتي حتَّى لو تزوَّجت بعدك ألف مرة، ربَما كان الأمر سيبدو هينًا لوكان رحيلك بسبب امرأة لا أعرفها... كنت سأتخيَّلها أجمل منِّي، وأنَّها الأنسب لك بين كلِّ النساء، لكنَّها أختي الوحيدة... التي من المفترض أنْ رحيلك سيجعلني أذهب إليها مسرعة احتضنها وأشكوك لها... و ربما كان الأمر سيكون بالفعل أقل وطأة وأقل لؤما وألما لو أنك لم تحضر خطبتي، فأراكما سوية في الحفل وأجلس أنا بعيدة بين الورود البيضاء والحمراء وأنا الوردة الذابلة بينها لايعرف احدا ان ماءها قد نضب .

عندما ألبسني الخاتم شعرتُ بأنَّ الأغلال تُكبِّلني، وتساءلت كيف لقاضٍ مثلي

أنْ تكون معتقلة... ماهي تُهمتي؟... متهمة بالبراءة وعقوبتي: السِّجن المؤبد في قفص ذهبي

إنَّ صمت الإنسان لا يُنبئك بمدى أنينه من الدَّاخل، لأنَّ الصمت هو لغة القلوب المرهفة والحيلة العاجزة.

ستتسأل كيف لهذا الكون ان يحمل في احدى اركانه بشرا في هيئه وجع، ستنتظر صراخه المتصاعد إلى عنان السَّماء غير أنه يفاجئك بالابتسامة، ستنتظر أنْ يحطِّم كلَّ الاشياء من حوله فيفاجئك بهدوءه و يتمتم بهمسات الدعاء، والأغرب من هذا أنَّك ستجده يستمع لمشاكل الغير، يتفاعل معها ويحاول حلَّها وكأنَّها همُّه الوحيد، وكأنه لم يتشبع و لم يبلغ حد الاكتفاء، هذا الصَّبر نوع من الفنِّ الذي سأبدع فيه مع كلِّ ومضة أضافها القدر إلى عمري

أنا اليوم كلما سمعت كلمة مبروك ترجمتها في جوفي على انها تعزية، ربَّما أنت لاتعتقد بهذه الأشياء ولا تهتم بها، ربما ما أقوله الآن لايزيد ولاينقص ولا يغير القدر... كل ما في الامر اني اشعر انني شجرة عظيمه عمرت عقود عديدة و الان هي تجف من الداخل، ومازال الجميع يرى فيها القوة والصلابة ومع الوقت يتم قطعها وضمها الى حطب الشتاء.

اذن قبل ان يجف عودي وتقتلع جذوري وتحترق اعماقي دعني أتمنَّى لك السعادة كما تمنَّيتها لي لأنها خُلقت لتَّمني... لا لنعيشها بل نعيش حياتنا على أمل إيجادها.

«رودي» هي حبيبة طفولتك ولكنَّها كلُّ عمري، حاول أنْ تُسعدَها بقدرما أحزَنتني... اصنع منها جبلا شامخ بقدرما حطمتني... حافظ على قلبها

بقدرما جرحتني واحتفظ بها بقدرما أبعدتني... اجعل منها بستانًا أخضر كما جعلت منِّي أرْضا محروقة

... واعلم أنَّني لنْ أكون أبدًا عائقا بينكما فهي تستحق السَّعادة وتستحق حياة لاتغرب فيها الشمس، ولاتستعبد ايامها اظلام ... كن لها رجلاً... تكنْ لك كلُ النساء، أمَّا أنا فسأرفع راية النِّسيان وأركب موج الكبرياء مع قبطان لا أثق في أشرعته ولن أُنزل مرساتي إلا في مرفأ الاستقرار، لمقاومة تيار الماضي المتعلِّق بك.

ربما خطيئتي ليست في الحبِّ فنحن لا نُسيطر على عواطفنا، ربما خطيئتي في الانتظار ومنح الأعذار، دائما نمنح الاخرين زمن ايضافي والفرص الجديدة وكأنَّ الوقت الذِّي نهبُه لهم ليس من أعمارنا ولا يمد للعد التنازلي في سنوات حياتنا بصلة فدعني أقول للمرَّة الأخيرة أنِّي كاذبة... ماكرة... منافقة

كاذبة لما ادعيت أني طبيعية وألغيت كلَّ تللك الفوضى التِّي يحدثها مرورك وغيابك، ماكرة... ماكرة بكلِّ ضعف وقلة حيلة عندما تجاهلت كلامك مع رودي مع أنِّي أنا من تراك بعين الإعجاب لاهي، ونافقت حين أظهرت أنِّي حازمة وصارمة، حديدية بقطعة واحدة وأنا مجموعة من البقايا التي تحمل في كل قطعة اكثر من معنى بين الحين والعتاب... وأنَّ مصدر قوتي هي انكسارات وضعف وحطام ورطام وأكوام من الشفقة على النَّفس... وفي النِّهاية أرجو أنْ تستمتع في هذا الحفل...

موتُ الصَّالحِ راحةٌ لنفسه... وموت الطَّالحِ راحةٌ للنَّاس

علي بن أبي طالب

(١١)

كالعادة جهَّزت الإبرة بكمية مضاعفة لأنَّ الجرعة الخفيفة لم يعد لها أيُّ مفعول، من ثم جاء «أسامة» فغادرنا سويَّة.

مضت أشهرٌ كثيرة مذ آخر مرَّة رأيت فيها «أيمن» في مبادلة، لذلك كنت اطمئنُ عليه من الخالة «لجين» عبر الهاتف، لكنَّه الليلة كان حاضرا

لماذا «أيمن»، لِمَ أتيت يا أخي، كمْ كُنتَ متعبا: فلستُ أنسى شحوب وجهك والهالات السَّوداء حول عينيك وأنت تتصبَّب عرقًا وتسيرُ متثاقل الخطوات...

فلما شارفت على الوصول إلينا سمعنا صوتا ينادي من بعيد:

سلِّموا أنفسكم... المكان مُحاصر... أُكرِّر... سلِّموا أنفسكم الشرطة تُحاصر المكان... هيا دون مقاومة .

أشار «أسامة» للعصابة المقابلة بالتَّسلل، فأطلقت الشُّرطة رصاصة في السَّماء للتَّحذير: ضعوا سلاحكم على الأرض وارفعوا أيديكم، لكنَّ العصابتين لم تفعلا ذلك.

أنا عن نفسي لم أكن أحمل سلاحا وفاجأني «أسامة» بأنَّه مسلح... ثمَّ بدأ اطلاق النار من جماعة «أيمن» أولا، فكان وابل الرَّصاص ينهال علينا كالمطر، فما كان منِّي إلا أنْ احتميت بإحدى السَّيارت، ثم أنَّني لم أفكر في حياتي بقدر مافكَّرتُ بالذَّهاب عند «أيمن» الذِّي أُصيب برصاصتين في صدره ورأيته يتهاوى على الأرض، فأسرعت إليه واحتظنته بقوَّة: تماسك... تماسك... يا أخي.

بقي للحظات يرتجفُ مُدرَّجا بالدَّماء- متأوِّهًا- في حين أنَّ إطلاق النار لم

يتوقف أبدا، إلى أنْ لفظ أنفاسه الأخيرة والدماء تسيل من فهمه على كمِّي، ضربتُه على وجهه وأنا أصرخ بأعلى صوتي، وقد ضممته بقوة إلى صدري: لا تمت يا أخي لقد... رحل «أيمن» عن هذا العالم العفن، وهو شاب يافع في عمر الزهور، صعدت روحه للسَّماء حيثُ تنتظر الأرواح جزاءها الأخير... مزيج من المشاعر تجتاحني بين حزنٍ وندم: الحزن لأنِّي خسرتك وأنا الذي لم أكسب في حياتي شيئا، والنَّدم لأنِّي لم أتمكَّن من انتشالك من هذا المستنقع كما وعدت أمَّك .

لن أراك مجدَّدًا تُشاجرني وتعبث بأغراضي وتستولي عليها، لن أرى ابتسامة الغرور التِّي ترسمها بعد كلِّ خلاف... ذهبتَ وأنا في عزِّ الاشتياق لأخوَّتك، مع أنِّي لم أكن قدوة لك يوما... لم أكن صالحا لأصلحك، لم أُحاول كسب ثقتك التِّي أنا نفسي فقدتها من أمدٍ بعيد.

ألوم نفسي على أشياء كثيرة لم نفعلها معا، فسامحني يا اخي

لماذا لا نعرف قيمة من حولنا حتَّى نفقدهم، لماذا لا نُدرك أهمية من حولنا حتى يتكفَّلهم الغياب؟

لماذا تعشعش فينا المآسي دون أوطان

وتخيط لأرواحنا الجزع ثوبًا دون إبرة ولا خيطان

أخي، رجلُ العائلة والسرُّ المصان

في تلك اللَّحظة تكبلت سرعة الزمان

وتباطأت الدقائق و سُلبت من وقتها الثوان

كيف أغفر لنفسي ؟

لماذا لم انتشلك من هذا البركان؟؟؟
لماذا لم أجبرك على الابتعاد قبل فوت الأوان
كيف صدَّقت أنَّه ليس لي عليك من ولي أو سلطان
ماذاسأقول لأمِّك ؟
كيف أخبرها أنَّ وحيدها قد تحرَّرت روحه وتحوَّل إلى جثمان
فالرصاصة فقدت الذَّاكرة وتحلَّت بالنسيان
كانت تستهدفني وأخطأت العنوان
فيا فقيدي... ليتغمد روحك الرحمن
وليُزرع على قبرك الياسمين والنعمان
وليكن ملاذي انا خلف القضبان

الآن لن تعيدك دموعي أوصراخي، انتهى كلُّ شيء وخسرتك للأبد، خسرت من كان يجب أن يستند عليَّ فكنتُ هشًّا لدرجة الانكسار، ضيَّعتُ من كان يجبُ أن أدعمه كأخٍ واصنع له مستقبلا مفروشا بالأزهار لكنَّني لم أفعل، فأيُّ وغدٍ هو أخوك يا «أيمن» وبأيِّ وجه سأقابل أباك... وبأيِّ وجه سألاقي أمَّك ؟؟؟؟

أتذكر يوم استودعتك الخالة «لجين» أمانة عندي، بل إنَّ شريط ذكرياتنا يمرُ كله أمامي منذ أوَّل يوم أتيت فيه للمنزل صغيرًا... رضيعا، كثير المرض والبكاء.

وضعتُ «أيمن» على الأرض وغطيته بسترتي، وحملت سلاحه، لتكون أوَّل مرَّة أحمل فيها سلاحا، وفي تلك اللَّحظة بالذَّات شعرتُ بضربة قويَّة على مؤخِّرة

رأسي ففقدت توازني وقدرتي على السَّيطرة في أطرافي ثم سقطتُ أرضًا، غير أنِّي تمكنتُ من الإلتفات خلفي لمشاهدة الفاعل: لقد كان «أسامة» يضربُني بزناد مسدَّسه للمرَّة الثَّانية إلى أنْ فقدتُ الوعي تدريجيًا، وصار صوت الرَّصاص والفوضى من حولي يتناقص إلى أن اختفى، وارى ايمن المغطى بجنبي بصورة ضبابية الى ان اغلقت عيناي، وساد صمت رهيب يصاحبه صداع قاتلٌ في رأسي، لم أفق إلا على سرير المشفى، وبعد التحاليل تبين أنَّ نسبة المخدِّر في دمي عالية جدًا

لا أدري كم مضى علي من الوقت وأنا مستلقي هنا في المشفى وغرفتي تحت حراسة الشُّرطة، تلمست رأسي فوجدته ملفوفًا بضمادات طبية، أمَّا رجلي فمربوطة بالأصفاد إلى السرير، حينها عادت إلى ذاكرتي صورة «أيمن» ينزف بين أحضاني والموت تنتشله منِّي، تذكرت غدر «ذياب» الذِّي أدرك أخوتي مع «أيمن»، وعادت إلى مسمعي تلك الأصوات والضَّجيج وكأنِّي في موقع الحادث، فلم أتمالك نفسي ودخلت في موجة من البكاء والرَّغبة في المهدئات، لتزيد بذلك عصبيتي وصداعي...

أسرعت الممرضات إلى غرفتي وإبلاغ الطبيب المعالج الذي قام بحقني فدخلت في نوم عميق مجدَّدا .

كانت الشَّمس مشرقة عندما استيقظت... تلُوح بخيوطها بين ستائر النافذة، لتبشرني بعهد جديد من الا لم المزهر، التفت يمينا لأجد أبي بجانبي يتأمَّلني بعينين متورِّمتين من فرط البكاء، ووجه شاحبٍ وشفاه بيضاء متشقِّقة، لكأنِّي أسمع أنفاسه الحارَّة التِّي تدخل جوفه، أمَّا عيونه فكانت تروي جنازة «أيمن» وتترجم

التَّعازي التِّي تلقَّاها وكلام الناس عنَّا... ثم فجأة تناسى كلَّ هذا وسألني:

- كيف حالك؟

لم أكن أملك الإجابة، لأنِّي لم أشعر بشيء فعلا، فبقيت صامتا أواصل قراءة ملامحه لأعرف كيف جرت الأمور... ثم واصل كلامه:

- الطبيب قال إنَّك ستكون بخير... لقد نجوت من نزيف داخلي منذ أكثر من ثلاثة أيَّام... ربما قد يتم نقلك إلى السجن لتواصل العلاج هناك في انتظار محاكمتك فحالتك قد تحسَّنت .

- لماذا لا تسألني كيف قتل «أيمن» ؟

- هل هذا سيعيده ؟

- إذن لماذا لا تلومنِ على موته ؟

- لا أرغب في الحديث عن هذا الموضوع لا نفسيتي... ولا صحتك تسمحان بذلك .

أكبر شرٍّ عدا الظُّلم هو أنْ لا يدفع الظَّالم ثمن ظلمه

أفلاطون

(١٢)

في سكينة اللَّيل، وقبل أنْ أغفو، اقتحم المفتش وشرطيين اثنين الغرفة، لأخذ إفادتي بعد أن سمح لهما الطبيب بذلك، كانت أسئلة كثيرة، لم أُجب على معظمها، فبدا الغضب واضحا على المفتش... نظراته الحادة ذكرتني بنظرات العمِّ «فاروق» عندما كنَّا صغارًا، كبرتُ... ولازالت تلك النَّظراتُ تلاحقني... آه ماأشبه اليوم بالأمس.

في الصَّباح تم نقلي مكبَّل اليدين مع حراسة مشدَّدة لأدلي بما أعرفه وأعترف بما اقترفت ؛ كان هدفهم منذ البداية القبض على العصابة كلِّها، أعِ أنَّهم يعتبرونني طرف الخيط وهمزة الوصل لذلك كنت متعاوننا معهم لأبعد الحدود: لتخفيف محكوميتي أولاً، وتوبة بعد فجيعة مقتل «أيمن» ثانيًا، فأعطيتهم الأسماء التِّي أعرفها أوتعاملت معها... وأخبرتهم عن الأماكن التِّي نرتادها والأماكن التي تبادانا فيها البضاعة، فكان سهلا القبض عليهم فيما بعد.

وقدْ فاجأني أنَّ رقم هاتفي كان مراقبًا منذ مدة وأنَّهم يملكون تسجيلات تخصني... من ثمَّ نُقلت للحبس ليتمَّ استدعائي للتَّحقيق مرَّة أخرى.

أتذكر أوَّل زيارة لأبي... كان مكسور الخاطر مهيض الجناحين، فقد فجع في ولديه مرَّة واحدة: أحدهما مقتول والآخر مسجون، أخبرني أنَّ الخالة «لجين» طريحة الفراش وقد خارت قواها كليًّا وتلاشت رغبتها في الحياة، وقلبها يعتصر على فراق ابنها الوحيد،، هي تحمل صورته وتطوف في المنزل بحثا عنه أو عن أيِّ شيء يُذكِّرها به... إنَّها تتصفح كتبه وتمعن النظر في صور اللاعبين في غرفته بل تغفو أحيانا فوق سريره بعد ان تخرج كل ثيابه من الخزانة وتشتم رائحتها .

تقول: إنِّي وأبي المسؤولان عن مقتله، ذلك أنَّ أبي لم يقم بما يجبُ لحمايته وأنا ورَّطته معي مع أنَّها–قبلا– ترجتني أنْ أُبعده عن كلِّ سوء.

في نفس اليوم وكَّل لي عمِّي محام، مع أنِّي أخبرته أنْ لا يفعل لأنِّني متورط إلى العظم، كما أنَّ حياتي داخل السِّجن لن تختلف كثيرا عن خارجه، لكنه قال: إنَّه سيتمكن من تخفيف الحكم لسنوات أقل... آه يا عمَّاه... إنَّ محكوميتي بدأت منذ اليوم الذِّي أبعدت فيه «راما» عنِّي .

كم مرَّة يجب أنْ تحكم عليَّ هذه الفتاة بالسِّجن، كم مرَّة يجبُ أنْ أكون مجرما أمثل أمام قضائك؟ دائما يشاء القدر أنْ يكون «أيهم» أوَّل من تحاكمينه... هل ستستندين لقانون القلوب أم لقانون البلاد أم لقضائك أنتِ وحدك ؟؟؟

عندما دخلتُ المحكمة لم يخطر ببالي للحظة أنْ أراكِ هناك، ووقفت أمامك في قفص الاتهام... فكنتِ القاضي الذِّي يضربُ بمطرقته ليسكتَ الجميع بإستثناء صرخات روحي، كلُّ من في الجلسة يرونك قاضية إلا أنا، رأيتك الحبيبة الفاتنة... رأيتك الخصم والحكم .

وقد شدَّني أنَّك لا تلبسين خاتمك، هل نسيته أم أنَّك تعمَّدت عقابي على طريقتك؟

ألم تقولي أنَّك: إنْ أصبحت قاضية فإنَّك لن تفكري إلافي أهالي الضَّحايا وحرقة أهاليهم؟ أيُّ تناقض بين قولك وفعلك ؟... كنت متحمِّسة مفعمةً بالحياة، أنت العظيمة التِّي تتصاعد منها رائحة الفرح أينما حلَّت، أمَّا اليوم فأنا على درجة عالية من الثقة أنِّي من كسرَ إيمانك بالحياة... وزلزلتُ عظمتك، واستبدلت رائحة الفرح فيك برائحة رذيلتي، اضيفي كل هذا لقائمة التُّهم التِّي

تلبسني، فلا يصحُ أنْ تعاقبيني على بعض الخطايا، فقط، ولا يجوز ان يكون الجزاء مقتصرا على الإيذاء المادي، فالإيذاء الروحي اولى بالعقاب واعتبري كلامي هذا دليلا واعتراف .

«رامتي حبيبتي»... قضيَّتي وقاضيتي... سجني وسجَّانتي... أسري وحريتي... قدري وحياتي... متهمٌ أنا بترويج المخدرات... وتعاطيك...إدماني الحقيقي هو التعود على مشاعرك... لقد هدأت بعد ان رؤيتك مرة اخرى بعد المحاكمة فعدالتك أجَّلت إصدار الحكم لوقت لاحق.

في زيارتك الأولى وبل زيارتك الوحيدة لي في السجن، تراشقنا بالنَّظرات وتآكلت الكلمات بيننا وضاعت، واختصرت الحروف ومعانيها في صمت رهيب خيَّم على القاعة، قلنا كلَّ الكلام في تلك الدقائق التي تأملنا فيها بعضنا في سكون تام. كلُّ ما فيك كان يسألني: لماذا؟ ويعاتبني...كيف وصلنا إلى هنا؟

عيونك تتحرَّى الإجابة في عيوني عن سؤال عجزت شفاهك على التلفظ به، فلطالما كنت تنتظرين اعترافي دون سؤال وكنت اصمت دون إجابة لأنك تعرفينها، غير ان الاختلاف هذه المرة هو تمرد دموعك التي اكتسحت اجفانك، وكسرت حواجز اهدابك لتسقط ساخنة محترقة كشهاب يتلهف لقاء الارض... فبقيت اشاهدها واحترق معها دون ادنى محاولة مني لتجفيفها، ليقطع كلامها هذا الهدوء العاصف:

- سأنسحب من القضية... لا يُمكنني
- لا تفعلِ
- لا أستطيع

– بل أنت الوحيدة التّي أؤمن بعدالتها

– أيُّها الطائش ستسجن... ! ومسحت دموعها المنهمرة واسترسلت:

لفترة ستفوق الخمسة عشر سنة...

سأعيش العقوبة التّي قرَّرتها كالحلم، لان عقلك من حكم به رغم ان قلبك يأبى ان يصدق كل هذا... لا تتشتتي بين قلب يأبى التصديق وعقل لا يجزم الا بالواقع، بين تفكير يعي انها النهاية، وشعور يتشبث بقطعة قش يتخيل انها موجودة...

هو طلبٌ واحد: لا تنسحبي من القضية...»راما» عليك ان تنصفي

انصفي كي ترتاحي وتُريحني، كي تنسيني واتذكرك، كي تكوني ذنبي وتوبتي، لأكون نهاية المأساة وتكوني لي بداية الفرح، سأكون ماضيك ولتبقي حاضري... انصفيني كي اكون كذبة عابرة في حياتك وتكوني الشيء الصادق الوحيد في حياتي .

ثم قامت من على الطاولة، وسارت بضعة خطوات متثاقلة، ناديتها من خلفها: سامحيني... أثق في عدالتك فأنا استحقُّ جزائي، لا تتخلَّي عن القضية، أرجوك عديني قبل أنْ تغادري...

– أعدك...

ثم واصلت سيرها وهي تخفي ملامحها الباكية عن الحارس إلى أن خرجت كمن خرج من معركة خاسرة، ولم أرها بعدها إلا في جلسة الحكم النِّهائي.

أمَّا أنا وقبل المحاكمة الثانية تم نقلي إلى مركز العلاج من الإدمان لأنَّ حالتي لم تزدد إلا سوءً.

في السِّجن تُصبح الذَّاكرة خليلاً وعدوًا في آنٍ واحد

منديلا

(١٣)

تحوَّل المكان لساحة حربٍ بين محامي الادعاء الذي يطلب: المؤبد ومحامي الدِّفاع الذِّي يُرافع للتَّخفيف، لأنِّي كنتُ متعاونًا للقبض على بقية أفراد العصابة، بما فيهم «أسامة»، ولأنِّي اعترفت مباشرة دون إنكار.

وما بين مدِّ هذا وجزر ذاك، وسجال طويلٍ بين الدِّفاع والادعاء، لم أكنْ مهتمًا إلا بصمتك، لم يكن يهمني إلا أن أعرف مع أيِّ الفريقين أنت ؟... و أستمد منك القُوَّة بعد الضَّعف، من تلك العيون الغاضبة لدرجة الشراسة والهادئة لدرجة الخشوع في نفس الوقت، وهي تسترق النَّظر إلي من حين للآخر

لا أعلم كم من الوقت اتخذتم للتَّشاور على الحكم النَّهائي بعد خروجكم...

فزمن الانتظار لا يقاس بحركة عقارب الساعة بل بنبضات القلوب

فالانتظار انتحار... ودمار... وندم

الانتظار عمرٌ آخر مجبرين على أنْ نعيشه... أحيانا بالشوق او الاشفاق او الملل، لكن في حالتي هذه انتظر بخوف من المجهول...

و أجمل ما في هذه اللَّحظات: تطلعي لرؤيتك بعد قليل، وأسوء ما فيها أنَّها آخر مرَّة، فهل أفرح أم أبكِ... لا أرغب بالانهيار هنا لكنَّ بدني لا يطاوعني، قلبي يزداد خفقانه... أشعر أنَّه سينخلع من مكانه، وقدمايَ لا تطيقان حملي، بل هي قشعريرة في كلِّ جسمي...التفتُ حيثُ يجلس أبي، لم يكن أحسن حالٍ مني، طأطأ رأسه لما وقعت عيني بعينه... هي لحظة شعرت فيها بكم هائل من الخزي والعار الذِّي جلبته له، شعرت بالألم الذِّي سبَّبته له، هناك عرفت أنَّ موت «أيمن» راحة له من هذا الجحيم، ورغم كلِّ هذا استمدُ من حضوره القوة والثبات

فيقطع حديثي مع نفسي دخولكم للقاعة ولتكون أوَّل كلمة تتفوهين بها: حكمت المحكمة على المتَّهم «أيهم»... مهلا لحظة

لحظة مفعمة بالعذاب الذي يتربص بنا منذ الوهلة الاولى، لحظة الحزم والحزن... فأي كلام تحملينه بعد هذه العبارة ؟ انقلبت الادوار، فاليوم انا من ينتظر كلمة منك لتحديد مصيره... في يوم ما كنت تتلهفين لمعرفة حكمي بشأنك، فمجبر انا على الكتم ومجبرة انت على النطق، سكتُ كي تنالي الحرية... ومجبرة انت على الكلام لأنال العقاب، في سكوني ظلم وفي مشيتك وقفتك بهذا الزي عدالة وانصاف، الم اقل ان الادوار قد انقلبت ؟

هي عشرون سنة... قلتها وأنت تلقين عليَ نظرة الاهل لفقيدهم او نظرة الام التي فقدت صغارها، كحال مدينة انطفأت انوارها وعم الظلام على كل اركان ديارها وشوارعها، التمس فيك شفقة لا تضاهيها في الدنيا غير شفقتي على نفسي، تلك هي مشيئة العدالة...وحكمك وبهذا يكون القضاء قد وضع نقطة آخر سطر من معاناتي، لأقلب الصفحة، وتمتزج الأصفاد وصوت غلق الأبواب مع عاداتي اليومية.

اجل... سألاقي العذاب والوحدة، وأتعوَّد عليهما كمراسم الموت البطيء، غير أنْ أسوء عقاب هو عقاب الذَّاكرة، فتأخذني الأفكار وتهيم بي لتشكِّل زوابع العنيفة في صدر لا يزيد الا ضيقا مع الايام .

ربمَّا أنا ورملكَ الأوَّل وأنت جرعتي الزَّائدة... فلا أنت

شفيت منِّي ولا انا أقلعت عن تعاطيكَ حتَّى هلكَ كلاينا

«أيهم»

(١٤)

بعد عشرين سنة من السُّكون كان العالم في حركة دائمة... دخلت إليه شابًا وخرجت منه كهلاً:

فبدت الجدائل البيضاء بين خصلات الكلام

ولم أعد أسمع وقع أقدامها البطيئة نحوي

وأحيا الحياة بلا الوان

أناملي راجفةٌ، تعيشُ شتاء أبديًا

وفي أعماقي محموم يزيد هذياني

ويضع صورتها على جدراني

وأنسى أين وضعت نظارة نسياني...

بعد خروجي من السِّجن وجدت أبي –شيخًا كبيرا طاعنًا في السِّن– في انتظاري مع الخالة «لجين» وقد تغيرت ملامحها من البؤس والشقاء، أصبحت عجوزا مرَّ عليها أكثر من عمر

كان عمِّي هو الآخر في انتظاري،... أكثر شيء شعرت به هو الغرابة و التَّغيير، استنشقت الحرية ورحت اتمعَّن في الطريق والمدينة والنَّاس وقهقهات الأطفال والسَّكينة المحيطة بهم، هم لايعرفون نعمة أشعة الشَّمس لأنَّهم اعتادوا عليها.

لدي رغبة جامحة في زيارة الريف حيث تتعطَّر الأرض إذا داعبتها قطرات النَّدى، وتشهد أشجار الصنوبر علي تغريد الطُّيور ولحن الغدير... وفي المساء تتهافت الغيوم على أخذ قبلة من الشَّفق المحمَّر، فتغرب الشَّمس وتترك الغيم للوعة السَّهر والاشتياق... أرغب في زيارة البحر... فروحي المسجونة تشتاق لصوت

الموج ولمتعة جمع الأصداف، أرغب في الرَّكض حافيًا على الشَّاطئ دون توقف سأذهب إلى... قُطعت أفكاري بتوقف السيارة، وقولهم «وصلنا «

عندما نزلت وجدت نفسي أرمق البيت من الخارج واتفحصه، وخيِّل إليَّ للحظة أنَّ «أيمن» سيخرج منه لمعانقتي وتهنأتي على الخروج، ثم رحت بذاكرتي إلى زمنٍ كنَّا فيه صغارًا نلعب أمام الباب ونركض ونتسابق حتَّى أنِّي سقطت مرَّة من أعلى الدَّرج فكان هو يبكي بدلاً منِّي، هذه المشاهد طبعت على وجهي ابتسامة حزنٍ خفية لمحها والدي فدفع بي نحو الدَّاخل، وعندما دخلت البيت وجدت «فرح» وخاطبها و بنات عمِّي رفقة أزواجهن: رفيف مع طفليها وأحلام أمٌّ لثلاثة أطفال.

«جيداء» هي أصغر بنات عمِّي الذِّي ربَّاني في طفولتي، أشار إليَّ أبي أنْ أتزوَّجها، فكرت مليا، فمازالت «راما» تسكن فوائدي- مع أنِّي لم أرها طوال فترة سجني لابد أنَّها تعيش حياتها- رغم السنون العجاف.

وعلى أمل نسيانها تزوجت...

«جيداء»

هي التَّعويض الإلاهي الذِي رزقني الله به بعد توبتي، هي آية في الجمال: مثقفة، متدينة، قضت عمرها في الدراسة و العمل... هي مواظبة عليه لذلك لم تتزوج، وعمرها الآن يناهز الخمسة وثلاثين سنة، لم يكن فارق السِّن الذي بيننا عائقا للتَّفاهم ولم يحدث أن سألتني عن الماضي، - ماضيَّ المظلم- الذِّي طويت صفحته وقد ساعدتني هي على ذلك، كان عرسنا حفلاً عائليا بسيطًا يروق لفتاة متواضعة مثلها، وخمسيني مثلي وبعد زواجي مباشرة حصلت عمل براتب متوسط .

بعد سنة ونصف رزقنا بفتاة ناعمة، سمَّيتها «راما»، ألتقط لها الصُّور كلَّ يوم تقريبا منذ ولادتها فلا أرغب أن يفوتها شيء من ذكرياتها عندما تكبر.

وبحكم عملي مضى وقت طويل منذ آخر مرَّة خرجنا سويَّة- فتاتي الصَّغيرة بحاجة للَّعب هي الآن لم تتجاوز الخمس سنوات بعد - توجهنا لمتنزه يقصده الجميع... لعبت كثيرا ذلك اليوم، ركضت واستمتعت والتقطت الصُّور معي ومع أمها، عندما حلَّت الظهيرة ذهبنا للمطعم قرب المتنزه طلبنا أطباقها المفضلة... ثم طلبت مدللتي الآيس كريم فتركنا «جيداء» على الطَّاولة تكمل طعامها على مهلٍ وذهبت لأبتاع لها علبة... حين مددت يدي، فإذا بيد أسرع من يدي كأنَّها تسرقها منِّي كانت يدًا بيضاء شاحبة تعرفت عليها من رجفة يدها وحركة أصابعها.

هي «رودينة»، مازالت متوسطة القامة نحيلة الجسم نقية البشرة وتبدو أصغر من عمرها بكثير. و من دون أن أنتبه ذكرتُ اسم «راما» أمامها لأنَّها كانت تتذمر كثيرًا

- اسمك «راما» هل هذه صدفة ؟

ثم استرسلت وهي تتحسَّس خدَّ «راما» الصَّغيرة: كم كانت تحبُّ الحياة...

- لماذا ألمْ تعد كذلك، ربما قضاياها من تسلبها الهناء (أجبتها)

- كلاَّ كانت تحبُّ عملها... على كلِّ حال أنت كلُّ قضاياها... لم تستلم قضية غير تلك، فمرضها فتك بروحها قبل جسدها وقضيتك كانت القطرة التي أفاضت الكأس .

- أمريضة هي؟

- رحمها الله

- «رودينة» أنت تمزحين !!!؟؟؟؟

- لم تجيبيني يا صغيرة، كم عمرك ؟

فبسطت «راما» راحة كفِّها وقالت: عمري هكذا (أي خمسة)

- متى حدث هذا؟ ما كان مرضها ؟ -سألتها-

- سرطان، كانت حياتها بائسة... وحيدة، بعد دخولك السجن اكتشفت مرضها، لهذا لم تزرك، ثم فسخت خطوبتها لأنَّه تخلَّى عنها بعد اكتشافنا المرض، في البداية قاومت وتحمَّلت... لكنَّها استسلمت للمرض حتَّى العلاج الكيميائي لم يعد ينفع معها، عانت كثيرا... و توفيت بعد حوالي أربع سنوات من دخولك السِّجن، هي لم تتزوج طول حياتها... المهم يبدو أنَّك تعيش حياة طبيعية بعد كل هذه المدَّة ؟

بقيتُ جامدًا في مكاني، مصدومًا بما سمعت، وهي تودِّع «راما» وتعطيها المثلجات خاصَّتَها، ثم تمنت أنْ لا يكون قدر «راما» الصَّغيرة شبيهًا بقدر أختها... ورحلت.

كانت «جيداء» تنتظر، وخشيتُ أن نتأخَّر عنها وتقلقل؛ لذلك لم أسأل «رودينة» عن حالها و حياتها .

«راما» رحمك الله يا أعدل الناس...

هي خمسٌ وعشرون سنة لم تكن كافية لتمسح أيامي معك، أحيانا قد لا تكف الأبدية للنسيان... فطوال سنواتي في السِّجن كانت روحك رفيقتي، ولم أتصوَّر أنَّ الموت قد ظفر بها، تخيَّلت العديد من القضايا التِّي لم تتولَّيها، ورسمت في ذهني عرسك الذِّي لم تزفِ فيه، تخيَّلت أسماء أطفالك الذين لم تنجبيهم، وأغمضت عيني لأشاهدك... وكان بيننا حوارات وأمسيات، وشجارات...

عتاب وصفح، حتَّى إذا فتحت عيني أدركت أنَّ واقعي كابوس... فأزيد بك تعلقًا واستحضر تفاصيل ملامحك المرسومة في ذاكرتي سلفا، رغم أنَّ الشوق يتفنَّن في العبث ببصري وبصيرتي .

أمَّا الآن وبعد معرفتي بوفاتك تعتليني رغبة في البكاء .. موجة الندم، هو دهر من الغفلة يؤنِّبني ... لكم تمنيت أنْ أراك واعتذر منك، وأقف بجانبك في أيامك الأخيرة .

«راما»... أنت الجرعة الزَّائدة التِّي لم اعد للحياة بعدها، حتَّى لو تعالجت في كلِّ مراكز العالم، كنت فوق الإدمان... إدمانًا آخر، أنت الإضافة السِّحرية التِّي لا أحفظ تعويذة اختفائها، بل أحداث عذبة تصبُّ في ذاكرتي العكرة، لربما أنا ورمك الأوَل، وكنت جرعتي الزائدة، فلا أنا أقلعت عن تعاطيك ولا أنت شفيت منِّي حتَّى هلك كلانا، لكنَّ الجرعة الزائدة هي من تقتل صاحبها، أمَّا في حالتك فهي تموت وتترك متعاطيها مسجونًا في غيابة الجب يجهل أي قافلة ستظفر به بعد خروجه .

وعدت أخيرا إلى الطاولة في المطعم حيث كانت «جيداء» جالسة فسبقتني «رامتي» وعانقت أُمَّها واحتضنتها بلهفة واشتياق، ذلك المشهد كان كفيلا أنْ يزرع الاستقرار فيَّ من جديد، ويبثَّ الأمل في روحي بدل الألم ونزيف الذَاكرة، فابتسمتُ رغم ما فيَّ من عطب والتقطت لهما صورة وقصصتها لاحقا لأضعها في قلادة أمِّي النُّحاسية بعدما نزعت منها صورة «رودي» الصَّغيرة منذ مدَّة طويلة

فتحت الرسالة وحروفها ضايعين...

فيروز

(١٥)

هناك... على مسرح الأيام، حيثُ تمثِّل السَّعادة دورًا ثانويًا لايكاد يُذكر، وتتنكَّر الأحلام في زيِّ الاستسلام، ويبقى الحبُّ مختبئًا خلف السَّتائر، يحفظ كلَّ الأدوار ولا يعتل الخشبة، حتَّى إذا نَسي أحدهم كلماته ذكرهم بها، مع أنَّه في قرارة نفسه يتمنَّى لو يُجهر به ويحضى بالتَّصفيقات يومًا ما... أمَّا الحوار بين الدُّموع والحزن فهو المشهد الرَّئيسي في كلِّ المسرحية، إذْ تسلَّط عليهما إضاءة جريحة تلفظ آخر أنفاس النُّور. ويتفنَّن النَّدم في مزج ألوان الخلفيَّة، وفي النِّهاية قدْ لا يتفهَّم الجمهور أنَّ ثمن تذكرة الدُّخول قد خُصم من حياتهم .

«أيهم»... أكتبُ لك اليوم من المشفى بدل الكتابة من غرفتي الجميلة، اشتقت لجدرانها وسريرها وشراشفها ورائحتها، هنا رائحة المشفى تجلبُ غثيان الرُّوح وكآبة الفؤاد، هنا حيث أرقدُ الآن النِّظام ينهشُ المكان والصَّمت يختلجُ في الصُّدور ويخلق الحيرة والتَّشاؤم بل ويستحضرُ الذِّكريات، وأنا كما تعلم أحبُّ الجوَّ الحيوي لأنِّي أُتقن وصفه لعيون أبي ليرى من خلال كلامي... أشتاق أيضًا لمرايا غرفتي التِّي لطالما تزيَّنت أمامها قبل أن أخرج، فالمشفى فيه مرآة واحدة في الرِّواق أتجاهل النَّظر إليها دائما لأنِّي أخاف أنْ أرى نفسي بتلك الصُّورة، لقد تساقط شعري حتَّى بدت فروة رأسي جلدة بيضاء فأضع أحيانا باروكة، أو قبعة أو شال، لكنِّي في معظم الأحيان لا أضع شيئًا...

أمَّا جسمي فقد نحل كثيرا في الفترة الماضيَّة، لم أعدْ أستجيب للعلاج الكيميائي. آه... كم أنا راغبة في زيارتك لي... وتتباطأ فيها عقارب السَّاعة، لتنتشلني من مرضي وتقوِّني عليه، لكنْ لا... لا أرغب أن تراني هكذا، فأنا في نظرك

الفتاة الجميلة... الفتاة القوية؛ التِّي تعيش الحياة لحظة بلحظة دون يأس. تُراك هل ستتخلَّى عنِّي، كما فعل معي خاطبي السَّابق؟ لما صارحته بمرضي: رحل – لم أكن بحاجة لأنْ يقف معي أصلا– كان هذا هدفًا آخر يقذفه المرض في شباكي في الدقيقة التِّسعين .

هو رحل لأنَّه رأى أنَّ الأنوثة في المظهر، والمرأة التِّي تقصُّ ثديُها امرأة غير كاملة الأنوثة كما أنَّ نصف جمال المرأة شعرها، هههه... بل كلُّ جمال المرأة روحها، هو من يعاني منذ البداية سرطان الأفكار، لأنَّ الأنوثة في القلب وفي المواقف، والتافهين وحدهم من يرونها في الجسد... و كما تعلم السَّرطان ذكر... ذكرٌ مختلٌ يختار النِّساء المفعمات بالأنوثة في محاولة يائسة منه لسرقة ضحكاتهن وقوتهن لكنَّه غالبا يفشل.

دعني أقول في اللَّحظات الأخيرة وفي ما تبقى لي من عمر... أنِّي أحببتك

بقدر انتظاري... وانشغالك

بقدر حماسي... وبرودك

بقدر إصراري... وعدم اكتراثك

بقدر الحروف في كتبي...

أحببتك منذ أوَّل يوم عرفت فيه أنك لست لي

ومن ثاني يوم أدركت فيه أنَّك لن تكون معي

أمَّا ثالث يوم تخلَّى الزَّمن عنِّي وتورطت عقاربي بك

هل تعلم...

أرغب برسالة منك كي أنام بسلام

أرغب برسالة كي لا أنام بسلام

أمَّا أنا فأكتب لك هذه الرسالة التِّي لنْ تصل، رسالة لنْ أقوم بإرسالها لك، أكتبها كي أرتاح فقط .

أعلم منذ البداية أنَّك مدمن، وأعلم حتَّى النِهاية أنَّك مروج... ومع هذا لم أبخل عليك بقلبي، لم أبخل عليك بمشاعري ونبضي، وكنت أعلم أنَّك ترسم في ذهنك ألف حسابٍ لعلاقتنا ونهايتها، و كان هذا يحدث معي أيضا... لطالما كانت الفتيات يحلُمنَ أن تلتقين فارس أحلامهن في المكتبة، حيث يُمارس المتعلِّمون طقوس الثَّقافة من المطالعة والكتابة، ثم نصطدم صدفة فتسقط أوراقي على الأرض وتجمعها معي وتعتذر لي ومن ثمَّ نتعارف، أو ربما يقع اختيارنا على نفس الكتاب ويكون هو القاسم المشترك الجميل الأول بيننا، لكنِّني على عكس كلِّ الفتيات وسيناريوهاتهن، كان القاسم المشترك الأول بيننا حادثا... حادثٌ يسببُ التَّحطم لا البناء، يسبب الفزع بدل الفرح، والخوف بدل الطُّمأنينة .

حادث يثيرُ الدُّموع والسَّخط، وكلُّ همِّك كان كيفية تحصيل الأموال، وبعد لقاءاتنا المتكرِّرة لاحظتُ شيئا غريبًا.. مريبًا بل مرعبًا، ابتسامتك لم تعدْ طبيعية وطريقة ارتخاء عضلات وجهك وانقباضها أثناء كلامك توحي بشيء خطير... هل نسيت أنِّي أدرس القضاء؟ وأميز الحركات اللاإرادية عند المدمنين؟

عيونك الحمراء، وجفاف فمك وصعوبة تركيزك، والصُّداع الذِّي تشكو منه في كلِّ لقاء لنا، لم أشأ وقتها أنْ أُصدِّق عيني ولاعقلي، لأنِّي كنتُ أرى بقلبي وأُفكِّر به واحتفظت بشكِّي لنفسي وتجاهلته، ومع الأيام... و في إحدى المرَّات كان الجوُّ مشمسًا فخلعتَ معطفكَ واستندت عليه في الكرسي، فظهرت لي في

ساعدك آثار الحقن بارزة، يومها قطعتُ الشكَّ باليقين، فساعدك كان يتكلم بدلا عنك، ويروي حكاية أخفيتها عنِّي ولطالما علمت بها في قرارة نفسي... ألوم نفسي لأنِّي تجاهلتُ مأساتك ومعاناتك رغم شعوري بها

«أيهم»... أيُّها الغالي، أعلم أنَّك حزين... مكسورٌ وآسف... لكنَّني أنا أيضًا أعتذر منك لآني اعتبرك نفسي ولأني اردت ان احميني من نفسك، ففي آخر مرَّة التقينا حملت هاتفك وأخذتُ منه معظم أرقام أصدقائك، تردَّدت كثيرا قبل أنْ أُقدِمها للشُّرطة، لكنَّني فعلتها في النِّهاية، وأصبحت كلُّ تلك الخُطوط مراقبةً في تلك الفترة، ومكالماتكم مسجَّلة كدليل ضدكم مع أنكم كنتم تغيرون الأرقام... كما أنِّي تفاجأت أنَّ فردًا من عائلتك متورطٌ أيضا.

اعتبرني واشيه... اعتبرني جاسوسة... اعتبرني ما شئت لكنْ لا تشك في صدق نيتي، لا تشكَ في أني كنت أرغب أن أُخرجك من ذلك الجبِّ الذِّي ألقيت نفسك فيه، يجب أنْ أُبعدك عنهم بأيِّ ثمن... بأي طريقة... حتَّى لوكانت حريَّتك هي الثَّمن، وكنْ متيقنا أنَّ ما فعلته كان عن حبٍّ... صحيحٌ أنَّ الحبَّ يجعل منك مغفلا لكنَّه يحميك في النِّهاية.

فالعدالة هي الحبُّ... رغم أنَّ الحبَّ ليس دائما عادل

عندما قدمت تلك الأرقام للشرطة، كنت على دراية بأنك ستُسجن لفترة تفوق خمسة عشر سنة... واستلمت رغمًا عنِّي القضية كنت مجبرة عليها، مع أنِّي فكرتُ في الانسحاب أكثر من مرَّة... من ثمَّ قرَّرت أن انتظرك ونعيش حياة طبيعية بعد خروجك، حياةً صافية... بعيدة عن ذنوب الماضي .

عندما قدمت تلك الأرقام للشُّرطة كنت أُمنِّي نفسي بالمستقبل الجميل معك،

بعد أنْ تتعالج من إدمانك وتعود لطبيعتك، بعد أنْ تتخلَّص من قيود العصابة والتزاماتها الدَّنيئة، وكلُّ شيء في صالحك، في خدمتك، ستنتظرك امرأة تحبُّك اسمها «راما» مع عمل محترم وسيارة، ستتزوَّجان وترزقان الأطفال وتنفقان في تربيتهما نقودًا حلال، لكنْ هذا كلُّه لن يحدث

لقد سرقني السَّرطان من أحلامي...

«أيهم»... عنما تخرج سيكون قد مضى على مراسم دفني وتشييع جنازتي سنوات طوال لاأدري عددها، فالمرض قد هدَّ أيام بنيتها في مخيلتي، أيام لم أعش سعادتها ولن أعيشها، كوردة أراها من خلف الزجاج فلا أنا استطعت مسكها ولا شمَّ عبيرها، كزمنٍ جميل يحظر فيه التَّجوال والتَّحليق في سمائه، فها أنا اليوم عاجزة عن انتظارك وعاجزة عن رؤيتك أوحتَّى زيارتك والأعقد من هذا كلِّه أنِّي عاجزة على مصارحتك وبعث هذه الرسالة لك، لكنَّني سأبقى أتنفَّس ذكراك ما بقي من أيام عمري فلا تغيِّر من نظرتك لي .

وأوصيك... على شاهد قبري أكتب: لقد ماتت أكثر من مرَّة، لكن هذه المرة دفنتْ هنا، أُكتب أنَّ النَّاس يعيشون بالأمل وهي ماتت على قيده، ذكِّرهم أنِّي كنتُ أعيش الحياة بجلِّ أبعادها، وتذكَّر معهم أنَّك البعد الوحيد الذِّي لم أتمكن من عيشه.

ولا تجعل الموت يبدو جميلاً أو تظهره بمظهر البطل المنقذ... لأنَّه لم يعد أحد ليخبرنا أنَّه راحة، انظر فقط كيف هي حال من فقد روحه ورئته تتنفس بين البشر وقلبه استبدل النَّبض بالكآبة وأضرَب عن الخفقان، أمَّا شريانه فيسري فيه الإحباط بدل الدِّماء وعيونه تُبصر الظَّلام أكثر ممَّا تُمارس الرؤية في النُّور.

أتَرى؟ الموت غير مرتبط بالكفن والتُّراب بقدر ما هو مرتبط بالألم والدُّموع، فعندما يقترب الموت منا ونتأكد من تسلُّله إلينا بمرضٍ أوجرح عميق... تجد أنَّك تفكِّر في من حولك وحزنهم عليك أكثر ممَّا تفكِّر في نفسك...

ويبقى السُّؤال كيف يفكر المنتحرون؟ لماذا يعتقدون أنَّ صعود الرُّوح مختلف عن بقائها _ هذا إنْ لم يكن أسوء _ وأنَّ تعجيل المنيَّة ما هو إلا وقعٌ متسارعٌ لخطوات السَّعادة التي لم نتعلم السَّير في دربها، كيف يمكنهم أنْ يكونوا قساة مع أجسادهم بعد أنْ قسوا على وجدانهم بأيديهم، كيف يمنحون لأنفسهم حقَّ تقرير النِّهاية إنْ لم يكن في أيديهم حقُ البداية.

«أيهم»... أيهمي... ستخرج من السِّجن ياعزيزي، الحياة تنتظرك... أرى ذلك كما أرى نهايتي القريبة، وأرى التراب النديَّ الذِّي يشتاق إلى احتضاني مع كل جلسة علاج، لن أكون أمام باب السِّجن الخارجي لانتظارك يوم نهاية محكوميتك، لن ترمي حقيبتك وتركض لتحتضنني، لن يختلط هواء الحرية الذِّي تتنفسه بأنفاسي، لن نركب نفس السَّيارة وتخبرني كم أنَّ المدينة قد تغيَّرت تفاصيلها. وأتخيلك تصف تأثير مرور السَّنوات على وجهي... هه .. سيارتي والسَّنوات ستحملني قريبا لوجهة أخرى، إلى الحرية المطلقة التِّي لا تحدُّها حدود البشر. فلا بأس أنْ لا أكون حاضرة، مادم ستعرف أنَّ طريق الله لا يضلُّ من اتبعه، وستتعلَّم أنَّ الكسب الحلال بركة ربانية، سأرحل وآخذ معي ماضيك، لتعش أنت الحياة بحبِّها وعدالتها... فالحبُّ والعدالة لنْ يموتا بموت صاحبهما

«راما»

التِّي لم تعرف يوما من هي بالنِّسبة لك

ساجنتي...

حياتي نكتة تثير البكاء..

ذكيٌّ بلغ قمَّة الغباء

حفلٌ تغشاه طقوس العزاء

صيف يمتزج بالشتاء

أو ربما حقير من طبقة النُّبلاء

أنا يا ساجنتي ضعيف

بمظهر الأقوياء

فانصفيني يا سيدة النِّساء

***

قد عشتُ متقلِّب الأهواء

تأخذني ريح الأقدار أينما تشاء

تتأبَّطني من شقاء لشقاء

تقذفني للضفَّة الثالثة بين الأعداء

ثم تعود لتتوعدني بالجزاء

وها أنا اليوم أطلب من قلبك الإحتماء

فانصفيني يا سيدة النِّساء

ولا تكوني جرحًا يصعبُ منه الشفاء

***

مُعوجٌ أنا...

مُعوج أنا يجهل سبيل الاستواء
لدرجة أتمنى فيها الموت في الدُّعاء
وأطلبها في كلِّ رجاء
لكنَّ الموت اختارك أنت
ربَّما لأنَّك حضارة البراءة والنقاء
وأنا ذكرى مدينة مستعمرة جرداء
ترى... هل الموت يدرسُ التَّاريخ أم الإحصاء ؟

***

لعنة أنا ووباء
فكلَّما قرأتُ في عينك الاستياء
أيقنت أنَّ رحيلي هو التِّرياق والدَّواء
كلَّما رأيتُ سقوط ملامح الباء
من وجه تعودت منه بريق الأمل المضَّاء
أيقنت أنَّك بلغت من الألم حدَّ الإكتفاء
فسامحيني لأنِّي رجلٌ شرقيٌّ لا يتقن الاستغناء

***

ألم تقولي أنَّ الورد لا يبوح بحاجته للماء
ألم تقولي أنَّ الحبَّ خلق للأقوياء
ألم تقولي أنَّ المشاعر أنبل إذا اقترنت بالوفاء
صدقًا...

فلمَ رحلتي ؟

فلتسكنْ روحك عنان السَّماء

وسامحيني... يا امرأة القانون والقضاء

لعلَّ في صفحك... يكون لنا في الجنَّة لقاء

النّهاية

تمَّ بحمدِ اللّه